صافي صافي

الصعود ثانية

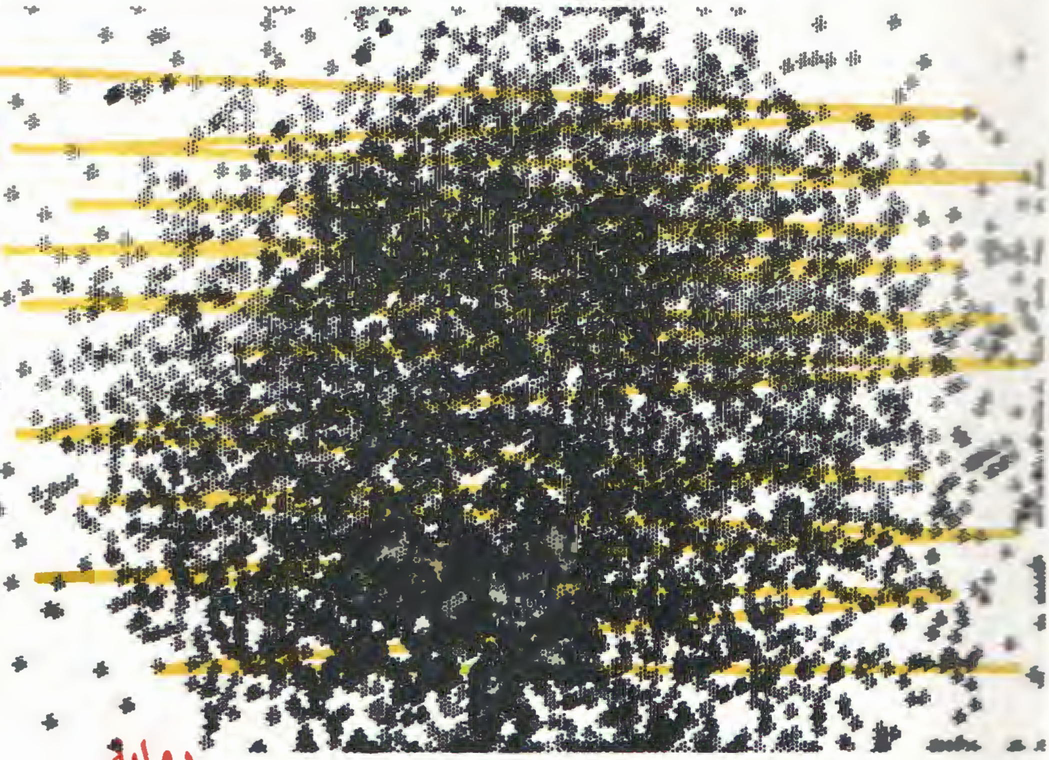

رواية

الطبعة الاولى

دار الكاتب ١٩٩٤

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رواية

الصعود ثانية

صافي صافي

- انا الحقير ، أنا الجبان ، انا المذنب ، يجب ان أُداس بالأقدام ، يجب ان أُسحق سحقاً ، أنا لا استحق هذه الحياة ، أن أقتل نفسي أفضل من ان يقتلني الآخرون، لقد قتلوني فعلاً ، ماذا فعلت ؟! ماذا فعلت بنفسي ؟! لماذا اعترفت ؟! لماذا وقعت على إفادةٍ تُثبت إدانتي ؟! لماذا وقعت على إفادة تلزمني بعدم الاتصال بالحزب ! أنا حقير ، حقير ، صرخت باعلى صوتي .

صرت ألهث ، كنت تعباً ومنهاراً ، انسكبت دموعي مرة واحدة ، اقترب مجاهد مني مواسياً ، أمسك بي ، وقال : مهلاً يا ماجد ، لا تفعل بنفسك هكذا ، توكل على الله .

لم التفت نحوه ، دُرت بوجهي نحو الحائط ، بكيت بأعلى صوتي وأنا اصيح : حقير ، حقير ، أنا حقير ، لا تدع يديك تلمسني ، سوف تصاب بالقذارة ، إنني مجرد كتلة من الأوساخ .

- لا يا ماجد ، إن اعترافك لا يعني الشيء الكثير ، كل شيء قابل للإصلاح في النهاية .

تألمت كثيراً ، تألمت اكثر مما عذبوني من قبل ، إنهم يعذبونني ، فتحت عَيني فاذا بشعار "الصمود يحقق الانتصار" يصرخ في وجهي ، أغمضت عينيّ ، التفتُ الى الجهة المقابلة ، وقعت عيناي على اسماء كثيرة ، اسم هشام كان الأكثر وضوحاً ، صَرخوا فيّ جميعاً ، رأيت كل الاسماء تصرخ فيّ من كل جانب ، نهضت مسرعاً ، وقفت مقابل الباب ،

كدت اصرخ في الحارس ، امسك مجاهد بي وقال : اجلس ، سيذبحونك هذه المرة، توكل على الله .

تأملت قليلاً ، قلت في نفسي : ما الفائدة من صراخي الآن ؟! لقد وقعت في المصيدة ، لم اعد عضواً في الحزب ، لقد فصلت منه رغم عدم معرفة احدٍ بعد باعترافي ، هكذا ينص النظام الداخلي ، لا يفيدني أن أنكر الآن ، لن يُغير ذلك من وضعي التنظيمي ، لقد وقعت في المستنقع ولا مجال للخروج منه .

اجلسني مجاهد على فراشي ، وقال : تعال يا رجل نتحدث ، الحديث يزيل جزءاً من هذا الألم الذي تعيشه ، لقد اخبرتك عن كل ما جرى معي في بلدي وفي هذا البلد أيضاً ، لكنك لم تخبرني بشيءٍ عنك ، لقد لاحظت أنك تعيش حالة مأساوية خلال الأيام الماضية ، ماذا بك يا رجل ؟ قالها وهو يحاول التقرب مني .

- هل أصبتَ يامجاهد بالحالة التي اعيشها حين اعترفت ؟

- ليس بالضبط ، لكني نادم بسبب عدم تأديتها الغرض الذي اعترفت من اجله ، لم أتغير من داخلي ، ظللت كما أنا ، في نفس الموقع الذي كنته ضد السلطة ، كنت مشرداً ، حملت السلاح ولحقت اخواني ، تركت الدراسة في الجامعة لاقاتل ضد السلطة ، دارت معركة غير متكافئة ، تم قتل معظم قيادات المجاهدين ، دخلوا السجن وأقاموا مجزرة ، عرفت حينها أننا مهزومون ، ذهبت بنفسي الى مركز حزب السلطة واستنكرت الحركة ، قررت أن اعود لاعيش بين أهلي وأكمل دراستي ، سمعت أنهم يغتالون كل الأعضاء بمن فيهم الذين استنكروا ، فقررت الهرب ، ربما لوعرفت بأن سلطات الوادي ستلقي بي في الزنازين لما أتيت ، انني اتعذّب أنا الآخر ، لكن ليس بسبب إفادتي هناك بل لابتعادي

عن اهلي ، انني ابحث عن حياة جديدة لا أعرف نهايتها ، هل اعترفت عن آخرين ؟

- لا ، اعترفت عن نفسي ، لقد اخبروني بانهم ليسوا بحاجة لأية معلومات جديدة ، كل المعلومات عندهم ، اعتقلوني أنا وثلاثة آخرين ، اخبروني بأن اثنين منهم قد خرجا ، بقي همام يريدون أن يحاكموه رغم أنه اعترف كما اخبروني ، خيّروني بين الأعتراف والسجن عشر سنوات ، اخترت الخروج ، ولكني وقعت على إفادة تلزمني بعدم الاتصال بالحزب ثانية وهذه جريمة كبرى ، إنها عملية طلاق مع الحزب ، إنها محرمة عندنا فكيف تكون مباحة عندكم ؟ إنني احسدك يا مجاهد ، أنت هربت من الجامعة ، هربت من بلدك واستنكرت اخوانك ، قطعت الحدود ، سُجنت ورغم ذلك هناك من ترتكز إليه ليُطهر لك نفسك ، أما بالنسبة لي فان الأبواب ضيقة ، كل شيء واضح ومحدد ، كل خطوة محسوبة جيداً ، ما دمت قد اعترفت عن نفسي حتى لو كان ذلك شفهياً ، فلم يعد لي قيمة عند الرفاق .

- حتى الطلاق له احكام ، ولا ينتهي الزواج بطلقة واحدة ، والمحكمة هي المحطة الاخيرة بعد فشل التوفيق بين الزوجين ، وحتى بعد حدوث الطلاق يمكن الرجوع للزوجة بشروط الدين ، هذا إذا كنت تعيش وضعاً طبيعياً بدون ضغوط وبالتالي فان ما يحدث هنا ليس عملية طلاق طبيعي فأنت عملياً لم تختر هذا المكان ولا العيش فيه ولا تنعم أنت وحزبك بحرية تامة . المهم يا ماجد ما تحمله في قلبك، يمكنك أن تكذب عليهم لتحافظ على وجودك ، عندنا في الدين : «الضرورات تبيح المحظورات» ، الخروج من السجن ضرورة في الأوضاع الحالية ، هل تعلم أن السلطة عندنا ، وعلى ما أظن نظام

الوادي أيضاً كان يطلق سراح كل من كان يستنكر الحركة ، لكنهم حين اكتشفوا بأن المستنكرين عادوا إلى العمل ثانية دون أن يؤثر ذلك على علاقاتهم ، ولا على نشاطهم لم يقبلوا بعدها أي توقيع ، ما حدث في الفترة الأخيرة له وضعه الخاص يتعلق بتقديراتهم ، المسألة لا تتعلق بما يفكر فيه المحققون ، بل بما يفكر فيه الذي يواجه المحقق ، بالنسبة لي : لا يعني ما فعلته أمام المحققين شيئاً ، لقد قاتلت بعدما اعترفت واستنكرت ، ربما سيبقيني هؤلاء في السجن ، إذا قرروا عدم قبولي هنا سأطلب منهم أن يسلموني لبلد آخر ، لكني لن أكون من داخلي إلا أنا ، لا يهم كثيراً ماذا أقول ، المهم ماذا أفعل ، بالطبع ما يقال مهم لكن ذلك يعتمد على الظروف التي تعيش ضمنها ، مطلوب منا أن نؤمن بالله ورسوله وها نحن نفعل ، مطلوب منا ان نقيم الصلاة لكن إذا مُنعنا من القيام بها علناً سنفعل ذلك سراً ، مطلوب منا أن نؤتي الزكاة ، نؤتيها للدولة الاسلامية لتوضع في اموال الزكاة وليس في خدمة الانظمة الكافرة ، ما يأخذونه يسمونه ضريبة ، مطلوب منا أن نصوم رمضان ونحج إلى بيت الله الحرام إن استطعنا ، بالاضافة الى ذلك مطلوب منا ان نجاهد في سبيل الله وليس في سبيل القائد ، وإذا أُجبرنا أن ننضم الى جيوش "القادة" فاننا نناضل في قلوبنا من أجلنا نحن وليس من اجلهم هم ، الجهاد سبيلنا ، والجهاد هنا لا تعني فقط حمل السلاح في مواجهة الاعداء ، بل يعني أيضاً جهاد النفس حتى تحاول أن توجد تطابقاً بين ما تفكر فيه وما تعيشه .

لم استطع إجابته ، حسدته ، وجدت نفسي أعيش في عالم غير الذي يعيشه مجاهد ، كل منا يعيش بمقاييس من يعاشرهم ، لقد عاشرت همام وزينب وحسين ، حين قال حسين يوماً بأنه يجوز

الاعتراف أحياناً في التحقيق ، اعترض همام بشدة ، قال : ما الذي تقوله ! إن الاعتراف جريمة ، نحن نعيش في عالم ، والنظام يعيش في عالمٍ آخر ،نحن نناضل من اجل اهداف تعارض وجود النظام برمته ، ليس بيننا حقائق مشتركة ، هدفنا هو تحقيق الحرية والديمقراطية والعدالة الإنسانية ولن يكون ذلك إلا باسقاطهم ، باسقاط حقيقتهم التي تذوب مع مصلحة الامبريالية ، نهب الثروات ، وجعل الوادي مجرد سوق لبضاعتهم ، وكبت الحريات والدوس عليها ، لو لم يفعلوا ذلك ، لما ظل النظام بهذا الشكل ، ولما تأخرت قضيتنا بتحرير ارضنا حتى الآن ، مثل هؤلاء لا مهادنة معهم ، ليست لنا أهداف نريد تحقيقها من خلالهم، أهدافنا تتحقق فقط باسقاطهم ، يجب تحرير هذا البلد اولاً ، هؤلاء هم مجرد عملاء ، وسطاء بين الامبريالية والشعب ، يجب أن يفهم الشعب ذلك ، حينها سيثور ضد الحكم ويسقطه ، الاعتراف امام النظام يعني الاعتراف والتسليم بوجوده ، الصمود وعدم التفوه باية كلمة هو الذي يحقق هزيمتهم.

ابتسم حسين وقال : صحيح كل ما قلته يا رفيق ، لكن من الناحية الأخرى فان النضال ضد النظام يجب أن يستمر ، ولا يمكن ان نقارن وجود رفيق قادر وكفؤ في السجن وبين وجوده خارج السجن ويعيش بين الجماهير ، إن مناضلاً يملك قدرات معينة ولا يمكن للمخابرات أن تجني شيئاً من اعترافه ، إن من الأفضل خروجه حتى لو كان الثمن الاعتراف ، لو لم تكن السلطة تعرف عن عضويته لما اعتقلته ، وإذا لم يكن الثمن تدمير منظمة حزبية فان اعترافه مقبول، وهذا يعتمد على الظروف التي تعيشها المنطمة الحزبية في ذلك الوقت .

توقعت حينها أن يصرخ همام في وجهه مرة أخرى ، لكنه لم يفعل ، صمت قليلاً وقال : ممكن .

نعم هذا ما حدث ، همام نفسه قال : ممكن . هذه الحالة التي وصفها حسين تنطبق علي أنا ، أنا الذي يملك قدرات معينة في السياسة والتنظيم ، أنا الذي بنى لهم منظمة حزبية في الخليج ، أنا الذي يعرف رفاقاً آخرين لم يتم اعتقالهم ، هذه الحالة تنطبق عليّ أنا، لم أعترف عن آخرين ، اعترفت عن نفسي فقط . لكن تلك "الممكن" التي تفوه بها همام ليس منصوصاً عليها في النظام الداخلي ، هل سيتعاملون معي بناءً على حديث جرى بيننا الأربعة ! ربما ، فهمام ليس مجرد عضو في الحزب ، إنه يحتل أعلى المراكز كما قال لي المحقق . لا .. لا ، المحاكمة تتم في النهاية من خلال النظام الداخلي، لقد خنت الحزب وخنت همام . إنني أبحث عن مبررات سقوطي ، لقد سقطت في الوحل ، ما أصعب السقوط ، ما أصعب أن أبحث عن طريق آخر غير الذي سلكته ، أي طريق سأسلك ؟ لقد سددت كل المنافذ أمامي منذ التحاقي بالحزب ، فكرت طويلاً وصرت مناضلاً وها أنا الآن أتخلى عن النضال ، هل استطيع رسم درب جديدة لنفسي ؟ ممكن . هل ستتوقف الحياة عند سقوطي ! لا . الحياة مستمرة بوجودي أو بغيره ، إن معظم الناس تعيش حياتها الطبيعية دون أن يلتحقوا بأي تنظيم ، معظم الناس ملوا الأحزاب وملوا النظام أيضاً لكنهم يتعايشون معه ، إنهم يشعرون بالهزيمة منذ هزيمة قواتهم ، كنت اسمعهم يقولون : لولا أخطاء المقاومة لما حدث ما ترونه، عشرات التنظيمات انتشرت في كل مكان ، كانوا يشكلون سلطة لكنهم لم يستطيعوا الحفاظ عليها .

قالوا أشياء كثيرة بمرارة ، هناك الكثيرون الذين ينعمون

بحياتهم دون منغصات كالتي أعيشها ، انا الذي جلبت كل هذا لنفسي ، كل الناس يركضون وراء لقمة العيش ويعيشون على فتات النظام باسياده ، يركضون في النهار من شارع الى شارع وفي الليل يتابعون برامج إذاعتهم وتلفازهم ٠ آهٍ ما أجمل سماع الأغاني ، لو يأتي أحد الاصدقاء بسيارته خلف هذا المبنى ويسمعني أحدى الأغاني ، آهٍ لو استطيع وأنا بين هذه الجدران سماع اغنية لام كلثوم أو لغيرها ، لماذا لم أكن اسمعها جيداً ! لقد كنت استمع للشيخ إمام ولأحمد قعبور ولمارسيل خليفة ، لماذا تأتيني هذه الأسماء الآن ! ابتعدوا عني ، انكم تذكروني بهزيمتي ، أيام فقط ستمر ، وسأرجع أعيش بين اهلي ، سأقبل يد والدي ووالدتي وسأنعم بمشاهدة التلفاز ٠ في هذا الصيف ستبدأ مباريات كأس العالم لكرة القدم ، انني احب متابعتها ، سأحفظ أسماء كل اعضاء الفرق جيداً ، سأقرأ بعض الكتب وأقول رأيي للناس ، للناس ! الانسان ليس معزولاً عن ماضيه ، سيظلون يذكرونني باللحظة الحالية التي أعيشها ، لن استطيع بناء مكانة محترمة لي ، آهٍ لو كنت شيئاً آخر قبل دخولي السجن ، آهٍ لو كنت مجرد عامل تنظيفات ، أجر عربة وانظف شوارع وأزقة في أرض الوطن ، او حتى هنا ، ولا افقه في السياسة شيئاً ، آه لو ظللت طالباً في الجامعة ، اهتم بدروسي وأنال شهادة ، آهٍ لو كنت راعياً ادور في الجبال خلف قطيع من الأغنام ، أمسك بشبابة وانفخ فيه لتطرب اغنامي ، آه ٠٠٠ ، ماذا أفعل الآن ؟ الانسحاب من الحزب ليس جريمة ، ولكن القبول بضغط النظام للانسلاخ عن الحزب هو الجريمة بحد ذاتها ، ماذا سأفعل ! لقد اقترفت الجريمة ، نعم اقترفتها ليس من سبيل لنكران ذلك ، أنا مجرم ، مجرم ، مجرم ٠

مضت الساعات وأنا افكر ، ضربت رأسي بالحائط ، ضربت الحائط

بيدي ، أسرع مجاهد نحوي ، امسك بي ، صرخت فيه أن يتركني ، ظل ممسكاً بي ، صرخت : لقد اعترفت ٠ ما اصعب الاعتراف ، لقد كنت مرتاحاً ، كنت لا أفكر في شيءٍ من هذا ، الصمود لا يحتاج كل هذا الجهد الفكري ، شعرت برأسي ثقيلاً ، الدم يندفع في كل جزء منه ، أحمرّت أذناي ، حرقتني عيناني ، شعرت أن رأسي سينفجر في الحال ، نهضت اتمشى في الزنزانة فلم استطع ، كدت أقع ، أمسكني مجاهد جيداً وأجلسني ثانية ، مضت الساعات دون أن التفت نحوه ، نام ولم استطع فعل ذلك ، وضعت رأسي على الوسادة دون فائدة ، اشتدت برودة الليل ، هدأت أصوات محركات السيارات في الشارع الخلفي ، سمعت صرير الرياح خلف الجدران ، سرت القشعريرة في عظامي ، أطفأ الحارس أنوار الممر ، مَر عند زنزانتي ، فتح نافذتها ، تطلع نحوي وقال هامساً : نم ٠

التفت نحوه وقلت : لا استطيع ٠

- نم ٠ صرخ ٠

استلقيت على الفراش وغطيت جسدي ، اغلق النافذة وذهب ، ابتعدت خطواته ، فتحت عينيّ فرأيت نوراً يأتي من الخارج ، كان النور قوياً ويحاول اختراقي ، يريد مهاجمتي ، خفت ، التصقت بالحائط، غطيت رأسي فسمعت صرير الرياح ثانية ، كانت قوية ، تطلق صفيرها معلنة عن ساعة الخطر ، شعرت ان يوم القيامة قد اقترب ، انتهت الحياة ، لم يعد لها معنىً ، لم تعد هناك قيمة لأي عمل أقوم به بعد الآن ، الحسنات تبقى كما هي ، والسيئات تبقى كما هي أيضاً، فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره ، وأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه

فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه ، نار حامية . لقد فعلت الشر كله هذا اليوم ، لن يكون هناك أي معنىً لكل الأعمال الخيرة التي قمت بها ، كفة ميزاني ستخف ، سترجح ناحية اليسار ، وأحمل كتابي بيساري ، ضجة اقدام الناس تطن في أذنيّ ، تجمّع الناس حفاة عراة ، كانوا يصطفون طوابير ، تنزلق ايديهم على أردافهم ، الامهات يتركن اطفالهن الرضع فيطيرون نحو السماء ويصطففن في الطوابير ، السماء تنفتح في كل جانب ، وضوء قوي ينبعث من كل اتجاه ، ينبعث قوياً ، لم استطع فتح عينيّ ، شققتهما شقاً حتى استطيع رؤية الطريق ، وإذا أغلقتهما لا يغير ذلك شيئاً من مساري ، كنت خفيف الحركة ، أكاد لا ألمس الأرض، قلبي يتهاوى عند ساقيّ وتتعالى دقات طبوله ، سرت طويلاً لا أعرف أحداً ، كلهم لا يعرفون أحداً ، لا اسمع صوتاً ، الجميع يعيشون حالة وجوم وخشوع ، فجأة ، هزني صوت يقول : ماجد ! أنت يا ماجد ! لقد فعلت أشياء كثيرة حسنة ولكنك في النهاية تنازلت عن إحقاق الحق ، لم تصن الأمانة ، أدنت نفسك ، أنت مصيرك النار ، إذهب الى النار ، إلى النار .

التفت فلم أجد أحداً سواي ، رأيت النار تقترب مني من كل جانب ، تندفع نحوي فاغرة فمها ، فمها كبير ، كبير جداً ، صرت في دائرة مغلقة من النار ، إنها تقترب ، لم استطع الهرب ، النار تقترب ، تقترب.

صحت بأعلى صوتي ، استيقظت من النوم ، صوت الرياح يتعالى ، نهضت مرتعباً ، امسكت بالحائط ، مجاهد ما زال نائماً ، قفزت نحو النافذة ، قفزت ثانية وامسكت بقضبانها ، نظرت الى الخارج ، رأيت الأرض بيضاء والجبال بيضاء والثلج يغطي كل شيء ، فتحت عينيّ جيداً، سمعت صوت أقدام الحارس تقترب ، نزلت مسرعاً ، دسست نفسي

تحت البطانيات ، أيقظت مجاهد وهمست في أذنه : ثلج .

صحا هو الآخر وبعدما ابتعدت خطوات الحارس ، قفز وتعلق بالنافذة وراح يرتل آياتٍ من القرآن ، شعرت أنني محاصر ، الحارس يحاصرني وجدران الغرفة تحاصرني وحتى السجن محاصر هو الآخر ، انكمشت على نفسي ونمت .

. . . . .

عُدت الى دوامة الافكار الثقيلة ثانية ، حاولت التخلص منها فلم استطع ، بدأت أبحث عن أشعارٍ واغانٍ ، التقطت بعضها وحين ردّدتها لم تهزني ، لم تثرني ، شعرت كمن يضع وروداً على سطح مياه آسنة ، لم تغير من رائحتها ولم تحسن من مظهرها ، كان شيء ما في الداخل يدفع بها بعيداً ، لم تستطع اختراق هذا الداخل ، حتى اغنية "العصافير تموت في الجليل" لم أعد أحفظها جيداً ، لم أعد أحس بطعمها ولا بلحنها ، لم يعد اللقاء بعد قليل له أي معنىً ، صار اللقاء حتى بعد أعوام يذكرني بالخوف ، إنني أخاف الآن رؤية احدهم ، حتى رجل المخابرات أخاف منه ، لم تعد صور الحدائق والجبال والاشجار تجتذبني ، انها تحاصرني ، لا يوجد معنىً آخر للحقيقة ، الحقيقة أنني مهزوم وجبان ، لأتفهم ذلك جيداً بحثت عن أغانٍ أخرى فوجدتها تافهة ولا تحمل أي معنىً ، وجدتها قميئة وصوتي يزيدها قماءة ، هززت رأسي للابتعاد عن هذا الجو الذي وُضعت فيه فعدت الى المحقق واسئلته ، ماذا لو استدعاني الآن وحاول التأكد من صحة المعلومات التي أدليت بها ، سألني عن رفيق الوطن ، هكذا سماه ، فقلت : لا أعرفه. حدّد لي اوصافه ، فقلت : لا اعرف اسمه ، هذه مهمتكم انتم . سألني عن

الرفاق في الخليج والذين عملت معهم ، قلت : لا أعرف اسماءهم ايضاً ، هم من تعرفوا بي ، حتى الذين اعتقلتموهم في بيتي لم اكن اعرف اسماءهم الحقيقية ، انتم الذين عرفتموني بها .

قال : ما اوصافهم ؟

- الأول طويل أشقر والثاني : متوسط الطول أبيض والثالث : قصير أسمر .
- ما اسم الطويل الأشقر ؟
- قلت لك : لا أعرفه .
- وكيف تعرف عليك ؟
- أخبرني بانه يعرف هشاماً .
- كيف عرفته ؟
- تعرفت به وأنا أتردد على الوادي .
- وما السبب في ترشيحك للحزب من قبله ؟
- كنا نناقش الأوضاع السياسية معاً ، كنا نتفق في معظم الأحيان .
- أين يسكن الرفاق في الخليج ؟
- لا أعرف .
- كيف كنتم تلتقون ؟
- في الشوارع والمقاهي والمطاعم .
- اين تحتفظون بالجهاز الفني ؟
- لا أعرف .

هذا كل ما قلته ، لم أقل شيئاً آخر ، لن أغيّر أية كلمة قلتها ، لن أضيف كلمة أخرى سواء صدقني أم لا ، إذا أراد معلومات أخرى فسأقول له وبأعلى صوتي : اسمع : الاتفاق بيننا واضح : اعترف عن نفسي

وتطلقون سراحي ، لم تخبرني بأنك تريد معلوماتٍ أخرى ، انت اخبرتني بأنكم تعرفون كل شيء وأن انكار التهمة لا يفيدني ، إذا أردت أن ترسلني للسجن فافعل ، السجن أفضل لي من هذا العذاب ، أرجعوني للتعذيب الجسدي إنْ أردتم ، كل تعذيبكم لم يفدكم ، فقد كنت أنا المنتصر ، سأحتمل ضربات أخرى ، علقوا رجليَ في السقف ، أجلسوني على مقعد الكهرباء ، افعلوا بي ما تشاؤون ، لكنكم لن تحصلوا على معلومات أخرى .

نهض المحقق من مكانه ، أمسك بي من كتفي وقال :

أرجو ان نصبح أصدقاء ، انا معجب بشخصك وجرأتك ، اذا اردت شيئا فارسل في طلبي ،اذا كنت تدخن سأسمح لك ، اذهب الى غرفتك الآن وإذا كانت الغرفة لا تعجبك ، سأنقلك إلى الغرف القريبة هذه .

- لا ، لا تنقلني ، لا أريد هذه الزنازين . قلتها خائفاً .
- هذه ليست زنانين ، إنها غرف للاقامة ،انظر إلى الراحة التي تنعمون بها ، إنها أشبه بغرف الفنادق .
- متى سأخرج من السجن ؟
- بعد أيام ، هذه إفادتك ، سيناقشها المسؤولون ، وهم من سيقررون موعد الافراج عنك ، سأحاول أن يكون ذلك قريبا .

رتب ثيابه ، فبان المسدس تحت أبطه ، أمسك به وأخرجه وقال مداعبا : لو أردت هذا المسدس لاعطيتك إياه .

آه لو أخذته منه ، لماذا لم أفعل ذلك ؟! لماذا لم اهاجمه ، أمسك به واصوبه نحوه ، لا يهم بعدها إن قتلني أو قتلته ، لا تهم النتيجة ، لو قتلته لمزقت الاوراق التي وقعت عليها ، ولو قتلني لمتُ شهيداً ، لقد فوّت عليّ هذه الفرصة ، كان يجب أن أفعل شيئاً ، لكن ، ما الفائدة من

كل ذلك ؟! الحقيقة هي انني اعترفت حتى لو لم يثبتُ ذلك كتابة ، لو طلب مني أشياء جديدة سأنقض الاتفاق فهو لن يعيدني للتعذيب ، وحتى لو فعل فلن يصل لنتيجة ، هو يعرف ذلك ، اذا اعادني الى التعذيب الجسدي سأغسل به روحي ، سأصبح إنسانا غير الذي أعيشه الآن ، وجدت نفسي أقف ، ورحت أشير بيدي وبعيني في وجهه ، صرت اتقدم نحوه واهدده ، وجدت نفسي قويا ، اقتربت نحو الباب وأنا أتمتم وأشير بسبابتي ، ارتطمت بالحائط ، وجدت مجاهد ممسكا بي ، أعادني الى الفراش وقال : هل جننت ؟ صحت : أتمنى ان اكون مجنونا بالفعل ، المصيبة يا مجاهد انني لست عاقلا ولا مجنونا .

- يا رجل : توكل على الله ، استعذ بالله من الشيطان الرجيم .
- لقد اصبحت أنا الشيطان ، فهل استعيذ به من نفسي ؟
- سيقبل الله توبة المؤمن حتى لو كان محملا بالآثام كلها ، أبواب الله واسعة ، تستطيع أن تدخلها من أية جهة تريد وسيغفر الله لك إن شاء .

دعاني نلعب «الضامة» ، كنا قد صنعنا أدواتها من بذور الزيتون ، فلطالما قتلنا الملل ونحن نمارس هذه اللعبة ، أمسكت ببذور الزيتون، دققت النظر في المربعات المرسومة ، لم أستطع ، قلت له : لا أجد أن الوقت مناسب لهذه اللعبة ، قال : ما رأيك أن تقوم تتوضأ ونصلي ونقرأ معا آيات من القرآن .

لم أجبه ، تذكرت ما قاله المحقق ، سأل : من يسكن معك ؟

- مجاهد .
- سأحاول أن أنقله من غرفتك . وضحك.
- لماذا تضحك ؟

- لانني أخشى أن تنظمه في حزبك وتقنعه بافكارك .
- لم يعد لي حزب انتمي إليه .

لقد استهزأ المحقق بي ، يحق له ذلك ، كان من الممكن أن يخشى ذلك قبل انهياري ، أما الآن فانني لا أقوى على شيء ، فليس كل من لديه بضاعة يستطيع بيعها ،الامتلاك شيء والتعامل في السوق شيء آخر ، لقد كنت أكثر قوة من مجاهد ، لقد وصلني منهارا ، فبعد قضاء اسبوعين في الزنزانة وحدي رغم كل العذاب النفسي والجسدي كنت قويا ، لكني الآن شيء مختلف ، حينها فتح الباب فجأة فاذا بالحارس يلقي به زائرا جديدا ، قمت وسلمت عليه ، فرحت ، أجلسته على فراشي قبل أن يتسلم عهدته ، كان شابا صغيرا هو الآخر ، دخل خائفا ، قال للحارس متوسلا : أريد أن أقابل الضابط .

- هذا ليس عملك ، هو الذي يستدعيك ولست انت .

سألته : ولماذا تريد الضابط ؟

- هل سيبقى المعتقل هنا طويلا ؟
- لا أعرف
- لا يريدون هؤلاء أن يفهموني ، أنا الذي سلم نفسه لهم ، اخبرتهم عن كل شيء لكنهم لا يصدقونني ، ضربوني والقوا بي في السجن ثم نقلوني هنا ،لا أعرف ماذا يريدون بعد .
- وماذا قلت لهم ؟
- اخبرتهم انني من هناك ، كنت طالبا في الجامعة ، اعلنت الحرب ضد السلطة ، وقاتلت ضدها ، وفي النهاية استنكرت ، لم يسجنوني ، خشيت أن يغتالوني كما فعلوا مع آخرين فقررت الهرب ، حملت مسدسي في جيبي وهربت ، تجاوزت الحدود فرأيت جنودا هناك ، اقتربت نحوهم ،

كانوا يصنعون شايا ، القيت عليهم التحية وأخبرتهم انني هارب من السلطة ، أجلسوني واسقوني شايا ، وحتى لا أخفي عنهم شيئا قلت : انا احمل سلاحا . وقف ضابطهم وهجم عليَ ، امسك يديَ وفتشني الى ان وجد المسدس واخذه ، امسك بعصا وانهال علي بالضربات ، اراد أن أعترف إن كنت اخفي سلاحاً آخر أو إن كان هناك آخرون دخلوا الحدود من ناحية أخرى ، قيّدوني واقتادني إلى السجن ، حققوا معي هناك مدة ثلاثة أيام وها هم يلقون بي في السجن .

- هذا هو النظام الذي التجأت إليه .

- نحن نعرف ذلك ، واعرف ان النظام هنا يود مساعدتنا فقط لإنه يعادي السلطة ، أما نحن فاننا نود الاستفادة من هذا الخلاف .

- ولماذا لا يصدقونك ؟

- اخبرتهم عن اسم احد القياديين ، يريدون التحقق من ذلك .

- وكيف استنكرت الحركة إذا كنت تود الاحتماء بها ؟

- لم اجد بديلاً آخر ، كثيرون قتلوا ولهذا السبب هربت . المجازر في كل مكان ، لقد سُحق الشعب سحقاً ، أبادوا أحياء بكاملها ، أبادوا السجناء ، نكلّوا بكل شيء ، لم نتوقع ذلك ، كنا نختفي بين الناس لكنهم كانوا يبيدون الناس .

مرت الساعات ونحن نتحدث ، وجدت في النهاية شخصاً اكلمه حتى لو كان إنساناً يلجأ إلى نظام قمعي آخر ، إننا ننتمي لمشارب فكرية مختلفة ومتناقضة في الكثير من الأمور لكنني لا أملك الخيار ، تمنيت المطر فجاء رذاذاً او ربما هديراً جامحاً يريد اقتلاع كل شيء ، أنا الآخر وددت اقتلاع كل شيء ، وددت اقتلاع أسس هذا النظام ، وودّ هو اقتلاع اسس سلطة بلده ، كل منا أراد تغيير العالم وإن كان باتجاهات

مختلفة ، فتح باب الزنزانة فجأة ، ناداني الحارس ، قلت في نفسي : ها قد جاء دوري ثانية ، حفلة أخرى سأنالها ، علامات التعذيب الأولى لم تجف بعد ، أمسك بذراعي ، قادني الى البناية الجديدة ، دار يساراً ثم يميناً وعلى باب الغرفة وقف ، وجدت المحقق الأسمر وحده وأمامه اوراق بيضاء فارغة ، ظل جالساً ، أمرني بالجلوس مقابله ففعلت ، نظرت نحوه وهو يدخن سيجارة ينفث دخانها نحوي ، ثم قال : أين وصلنا ؟

- إننا في هذه الغرفة .

- أنملأ هذه الأوراق ؟

- املأها كما تريد .

- هيا قل ما عندك وستخرج .

- ليس هناك شيء أقوله .

- اتعترف أم نذهب لحفلة أخرى ؟

- نذهب للحفلة .

ذهبنا "للحفلة" ، عذبوني كثيراً ولم اعترف ، لم أقل شيئاً ، كنت لا أزال قوياً ، كنت أكثر قوة من المحقق واكثر قوة من مجاهد ، امسك بي اثنان وجراني نحو الزنزانة وهناك القيا بي ، جاء مجاهد وحملني الى الفراش .

جلس خائفاً ، مرتعباً ، كنت أتلوى من الألم ، الألم في كل جانب من جسدي ، قال وعلامات الارتجاف تبان من خلال صوته : وهل يضربون في المعتقل لهذه الدرجة ؟!

التفت نحوه وقلت : هذا هو النظام الذي جئت للاحتماء به .

صَمت ولم يجب ، التصق بالحائط وراح يفكر ، طلبت منه ان

ينادي الحارس عله يحضر لي ماء به ملح ، قام متردداً ، طرق الباب بهدوء ، جاء الحارس ، أخبره أني أريد وعاء به ماء ، صاح به أن يخرس ، رجع لفراشه ثانية ، طلبت من مجاهد ان يغطيني ، حمل البطانيات ووضعها فوقي ، لمست قدميّ وجسدي فاشتعل الألم من جديد ، لم أستطع الحراك ، كلما فعلت ذلك دبّ فيّ الألم ، وفي رجليّ ، وفي ظهري ، وفي وجهي وكل جزء من هذا الجسد ، صحت من الألم فسمعت صوتاً يقول : هل سيعذبونني أنا الآخر ؟

تطلعت نحوه ، فاذا به مجاهد يطوي طوله الفارع وجسمه النحيل ، وبعينيه الفاترتين يسترق نظرة نحوي ، كان جسده يرتجف وكذلك يداه الطويلتان ، كان شعره "المنكوش" قد طال وتبعثر حول رأسه ، عجبت لحالته وأنا الأقصر منه قامة وإن بدا جسدي أشد بنية ، اكتسى وجهه بالصفرة ، صمتُ قليلاً ووجدت نفسي أقول : أنت وحظك .

إنني الآن لست ماجد الذي كنته من قبل ، وبينما كنت أسرح بهذه الأفكار ، سمعنا طرقات على جدار الزنزانة ، رد عليها مجاهد بضربات أخرى ، فاذا بباب زنزانتنا يفتح ويدخل ضابط ، أمسك بمجاهد وراح يضربه بيديه ورجليه ويقول : ماذا كنت تريد أن تقول ؟

- لم أقل شيئاً ، لقد سمعت صوت ضربات على الجدار ففعلت مثله .

في نفس ذلك اليوم ، جاء الحارس وطلب مجاهد ، أمره أن يحمل معه كل ملابسه ، من يومها وانا اعيش في الزنزانة وحدي ، لم تفدني العاب الرياضة التي امارسها ، لم تفدني الالعاب التي اخترعتها ، لم يفدني بكائي ، اطرقت السمع لاصوات السيارات التي تروح وتجيء ، تمنيت ان أصبح طائرا صغيرا او ربما حشرة صغيرة حتى استطيع الهرب ، لم اتحول الى شيء آخر ، حاصرني البرد ، ظللت مندسا تحت

الغطاء لانال شيئا من الدفء ، هربت من الأسماء التي حولي ، هربت من الشعارات التي اكتشفتها ، هربت من الحارس ، هربت من نفسي ، تجنبت ان انام بعد الغذاء حتى استطيع فعل ذلك ليلا ، صرت امارس الرياضة بعنف ، انهك جسدي لانال قسطا من الراحة بعدها ، كل ذلك لم يفدني ، مرت الايام وانا وحدي ، المحقق لم يستدعني ولم يتم الافراج عني ، لا اعرف بالضبط ما سيكون عليه مصيري ،لقد اعترفت ولم يف المحقق بوعده ، لم استطع رؤية اهلي بعد ، هؤلاء الذين اعترفت من اجلهم ، اعترفت لأعود اليهم وازور امي المريضة كما قال والدي ، لم اعد متأكداً انني استطيع التكلم ، انني اسمع صوت الحارس واسمع خطواته مرارا ، لكنني لا اتكلم ، هل استطيع ذلك ؟! كلمت لعبة كنت قد صنعتها من الاسفنج فلم تجبني ، صرت اكثر تشككا في قدرتي على الكلام ،ربما لا استطيع ، فحتى الاخرس يفهم ما يقوله ، اما انا اريد انسانا ، صرت كلما خرجت القي بالتحية على الحارس ، لم يجبني ، هل اتكلم فعلا ! لساني يتحرك ، امسكت به وشعرت انه يتحرك عندما اتفوه بكلمة ، صحت باعلى صوتي ، جاء الحارس مسرعا وفتح النافذة ، تطلع نحوي ثم فتح الباب وقال : ماذا تريد يا حيوان ؟ هل انت مريض ؟

- اشعر بالم في معدتي ، اريد الذهاب الى المرحاض .

- اخرج. صرخ.

ذهبت للمرحاض ، وقف امام الباب وصار يراقبني ، بقيت هناك دون فائدة ، صرخ الحارس : اتجعلنا اضحوكة لك يا حيوان !

ارتديت ملابسي وخرجت دون ان اكلمه ، اقترب مني مسرعا ، لطمني على وجهي والقى بحذائه في بطني ، دفعني نحو الزنزانة وأغلق

الباب ، لم اكترث لضرباته ، لقد اردت فقط ان اكتشف ان كنت استطيع التكلم وها انا قد دفعت الثمن .

جاء الحارس ، فتح باب الزنزانة وقال : ارتد ثيابك . ارتديتها ، لا بد ان يوم الافراج عني قد اقترب ، لا بد انه اليوم ، فرحت وغضبت معا، انهمرت دموعي بهدوء ، دخلت غرفة المحقق فقال دون ان يجلس على المكتب : اسمع : انا في عجلة من امري ، لقد حاولت طيلة الايام الماضية اقناع المسؤولين بالافراج عنك في أقرب فرصة ، كل محاولاتي لم تفدك ولم تفدني ، قرروا ارسالك الى سجن الوادي بضعة ايام ثم يفرجون عنك.

- ولكنك تعهدت بالافراج عني فور التوقيع على الاعتراف . صرخت .

- لا تصرخ ، هذا لن يفيدك ، حاولت كثيرا ولم استطع ، ستقضي بضعة ايام وستخرج ، بالطبع سترى كل اصحابك هناك ، من الافضل ان لا تخبرهم عن اعترافك ، اذا اخبرتهم سيضايقونك ، اذهب الآن وانتظر .

لقد خانني المحقق كما خنت رفاقي ، السجن هو الثمن الجديد الذي ادفعه مقابل اعترافي ، انه لا يضعني فقط في مواجهة من لا يعرفون عن التنظيم الا القليل ، هؤلاء الذين لا يعرفون الثمن الباهظ الذي دفعته من اجل أن انال منحة من النظام بالافراج عني اذا فعلوا ، بل يلقيني بين رفاقي الذين اعترفت عن حزبهم وانتمائي له ، انني لم اعترف عن نفسي فقط . فلقد اعترفت بان هشام هو الذي اوصى الرفاق بالاتصال بي ، صحيح ان هشام قد حكم عشر سنوات بسبب انتمائه ، لكنه لم يعترف ، لقد اعترف عنه غيري ممن اعتقل قبلي ، كيف سأواجهه ؟ ماذا سأقول له إذا التقيته ؟! هشام لم يعترف رغم ان همام اتهمه بذلك ، فردا على رسالة بخط هشام يخبرنا بانه لم يعترف ، كتب

همام له رسالة قال فيها : أنت اعترفت يا هشام ، كان يجب أن لا تتكلم مطلقا ، كان يجب ان تنسى كل أسئلتهم ،ان تشغل نفسك بشيء آخر ، كان يجب ان لا تعترف امامهم حتى باسمك ، كان يجب ان لا تناقشهم في الامور السياسية ، لماذا فعلت ذلك ؟ التكلم معهم والرد على أسئلتهم حتى لو كان كذبا هو عمليا اقامة جسر بينك وبينهم وها انت قد فعلت ، المناضل لا يقيم جسورا مع السلطة وأدواتها ، يجب هدم كل الجسور ، نحن لا نريد منهم شيئا ، لا نحمل مطالب ليلبوها ، نريد اسقاطهم ، انت اعترفت ، لقد خرجت عن المتفق عليه .

في الحقيقة هشام لم يعترف عن انتمائه ، ناقشهم في السياسة لكنه لم يعترف ، حين اعتقلوه وجدوا في جيبه هوية مزورة تحمل صورته ، سألوه : ما اسمك ؟ قال : هشام .

- ولكن هذه الهوية تقول بان اسمك غير ذلك .

- هذه ليست هويتي .

- لكن الصورة صورتك !

- انها ليست نفسها ، يخلق الله من الشبه أربعين .

- ماذا لو احضرنا الحارس وسألناه حتى تتأكد انت من ذلك !

- وهل ستصدقون الحارس ! انكم تتكلمون عني وانا اكثر دراية بنفسي، اسمي هشام وصورتي ملصقة في جواز السفر فقط . وضحك.

كيف سأواجهه ؟!

في الطريق الى الزنزانة رأيت همام ، كانوا يجرونه جرا ، كان مغمضا عينيه ويتألم ، توقفت فاغرا فمي ، قال الحارس : اسرع .

دفعني ، توقفت ثانية والتفت نحوه ، صرخت : همام ، همام ، لماذا أراك الآن فقط يا همام ، همام.

دفعني الحارس بكل قوته نحو الزنزانة ، صحت بأعلى صوتي ، نشجت ، صحوت من المفاجأة وقلت : همّام لم يعترف ، همّام ما زال صامدا ، ما زالوا يعذبونه ، انا الذي سقطت وبقي همّام شامخا ، هذه هي الحقيقة ، سأخبر الرفاق عن كل شيء ، انا ساقط ، حقير ، جمعت ملابسي ، مشيت وحدي باتجاه عربة عسكرية كانت في انتظاري ، جلست في المقعد الخلفي فانطلقت مسرعة مخترقة شوارع الميدان نحو الصحراء الشرقية ، التفت نحو الجبل الشمالي ، والجبل الجنوبي ، وعلى باب السجن وقفت العربة قليلا لحين فتح البوابة ، رجال الشرطة في كل جانب ، لم يعيروني اهتماما ، صعدت مع جندي الى الطابق الثاني ، سلمه أوراقا وسجل اسمي ثم انزلني معه ، كنت مستسلماً ، لا اعرف اين سيكون مصيري . فأنا الآن في قبضة النظام وبعد لحظات سأصبح في قبضة هشام ورفاقه ، لم أعد رفيقهم ، كنت منهارا كمن فقد كل شيء وترك الاحداث تلعب به كما تشاء ، لم يكن أمامي خيار آخر ، وددت لو أموت تلك اللحظة ، فكرت ان احاول الهروب ليطلقوا النار علي وأموت ، لكنني كنت بدون قدرة على فعل ذلك ، رجلاي لن تساعداني على الهرب ، أحسست بأنني اهبط نحو الأرض ولا استطيع الوقوف عليها، تمنيت أن تنشق الأرض فتبتلعني لكنها لم تفعل ، أمسك بي الحارس وقادني نحو بوابة كبيرة مغلقة ، صاح الشرطي بمكبر الصوت: صالح . الباب بسرعة .

جاء صالح ، سلم علي ، قبلني واصطحبني داخل السجن ، مشيت بجانبه خائفا ، نظرت حولي فوجدت اناسا كثيرين يروحون ويجيئون ، سجن واسع ، ملعب وغرف ، قال : الى أية غرفة ستذهب ؟

- أريد ان اقابل هشام .

سرنا قليلا وقرب احدى الغرف توقف ثم قال : هذا من جماعتكم ، الحمد لله على السلامة .

لماذا اذهب عندهم ؟! لقد تخليت عنهم منذ ايام ، لا استحق حتى نطق اسمائهم ، فكيف أدخل غرفتهم ، شعرت اني صغير ، صغير جدا ، توقفت امام الغرفة ودموع حزينة تنفجر من بين رموشي ، جاء بعضهم من الساحة يركضون نحوي ، وقفوا عند باب الغرفة وقالوا : أهلا وسهلا ، تفضل .

صعدت الدرجات ، وجدت هشام أمامي ، تلقفني بلهفة ، قبلني على وجنتي وهو يقول : الحمد لله على سلامتك . وفعل الباقون مثله ، دخلت الغرفة فجاءت وفود كثيرة يهنئونني بالسلامة ، لم أقبلهم ، شعرت انني لا املك صلاحية ذلك ، سلمت لهم رأسي ليفعلوا به ما يشاؤون ، انهم يقبلونه الآن وسيبصقون عليه بعد لحظات ، سيبصقون عندما يعرفون عن فعلتي ، الحمد لله على السلامة ، الحمد لله على السلامة ، لم آتيكم سليما ، حتى جسدي لم يسلم هو الآخر ، لقد تعذبت ، آثار التعذيب ستجدونها على جسدي ، هذه ستزول ، لكن روحي لم تعد سليمة . انها معذبة ويزيدها لقاؤكم عذابا ، لقد مرغت هذه الروح في التراب ، لم استطع الرد عليهم ، دعوني أجلس على الفراش وجلسوا حولي ، لم أجرؤ على النظر في عيونهم ، قال هشام : إننا لا نعرفك باسمك الحقيقي ، لو سمحت عرف على نفسك .

- اسمي ماجد .

- اهلا بالرفيق ماجد . قالها كل الذين جلسوا حولي ، أصبت بالحزن والمرارة وأنا اسمعهم ، هززت رأسي ، فقال هشام ، سأعرفك عليهم ، ستحفظ أسماءهم مع الأيام ، هذه الغرفة خاصة بنا وهناك غرفة أخرى

يسكن فيها بعضنا ، ماذا تريد أن تشرب ؟

- لا أريد شيئا .
- يجب ان تشرب شيئا ، أأطلب لك شايا ؟
- لا أريد شيئا ، معدتي مصابة بقرحة .
- سلامتك يا رفيق ، ستشرب حليبا اذا .

لماذا تهتمون بي الى هذه الدرجة ! اصبروا عليّ قليلا ، لن اخفي شيئا عنكم ، عندها ستلقون لحمي لتنهشه الكلاب ، أنا اصغر مما تعتقدون ، لم يعد لقب رفيق يليق بي ، انتم الرفاق ، لقد خنت الأمانة ، خنت أمانتكم ، لكنكم لا تعرفون بعد ماذا حدث معي ، انتم لا تعرفون العذاب النفسي الذي قاسيته ، سأخبركم عن كل شيء ، كل شيء ، لماذا أرسلوني هنا ! كان باستطاعتهم الافراج عني ولم يفعلوا ، ارادوا تحطيمي كلية ، لم يكفهم ما فعلوه بي ، انهم يلقون بي الى الموت ، سأموت نفسيا ان لم يمت هذا الجسد الذي لم يبق منه شيء ، لم أعترف حتى أنفصل عن نضالكم ، لقد اعترفت حتى أعود اليكم ، لم أقصد ان اخونكم ، لم اعترف عن احد جديد لا تعرفه المخابرات ، لم يكونوا بحاجة الى معلومات جديدة ، لم أدلِ بمعلومات جديدة ، وجدت كل شيء جاهزاً ، لقد قتلني الحزب لإنه كان السبب في اعتقالي ، لقد قتلني اهلي، لقد قتلتني ريم التي كانت حبيبتي ، لقد قتلني العذاب النفسي الذي قاسيته قبل السجن وبعده ، صحيح بأنني انا نفسي قتلت نفسي لكن ذلك حدث بسبب العلاقة بكم ، اصبروا علي قليلاً وسأدلي لكم بكل ما حدث معي ، أبداً لم ترهبني ضرباتهم ، لقد ظللت صامداً في وجه كل عذابهم ، احتملت كل الألأم في جسدي ، احتملت الآم جراحي ، لم اعترف لأنني لم احتملها ، كل ما فعلته انني فكرت ، ألست حراً في أن أفكر !

هكذا فعلت ، فبعد انتهاء التعذيب المر الذي قاسيته ، أرسل المحقق في طلبي ، لم يكن من أولئك الذين مارسوا التعذيب ضدي ، استقبلني مبتسماً ، مد يده ، وسلم عليّ ، وضع يده على كتفي ودعاني الى الجلوس ، جلس على المكتب قبالتي ، كان متوسط القامة ، ممتلىء الجسم ، أبيض البشرة ، مبتسماً طوال الوقت ، قال : أتريد شاياً أم قهوة ؟

- لا شيء . قلت .
- يجب أن نشرب شيئاً .

دق الجرس وطلب شاياً .

- اريد فقط دواء لمعالجة حموضة معدتي .

دق الجرس ثانية وطلب دواء ، ثم قال : كيف حالك .

- كما ترى . قلت .

جاء الحارس بالشاي وقرص دواء ، اعتدل المحقق في مقعده ، وأسهب في الحديث ، كان حديثه ودياً للغاية ، لم يحاول إثارتي ، قال : بصراحة ، نحن لا نريد احداً ليعمل معنا ، لا تتخوف من ذلك ، لسنا بحاجة لمن تسمونهم عملاء ، أرح نفسك ، لقد قبضنا عليكم جميعاً ، وصلنا لكل واحد منكم ، لن نعذبك بعد الآن ، انت حر ، إذا قررت أن تسجن عشر سنوات فالسجن مفتوح منذ الآن ، أما إذا قررت الخروج فيجب ان توقع على إفادة، لا نريدك أن تعترف عن آخرين ، لم يتبق آخرون أصلاً ، المجموعة الأخيرة كنت أنت احد افرادها ، إذا لم تعترف فهنالك المحكمة وستجد من يشهد عليك ، وإذا لم نجد أحداً فسنشهد نحن عليك ، عشر سنوات ستقضيها في السجن ، أنت ما زلت شاباً في مقتبل العمر ، وأنت حر في خيارك ، لقد ظننتم أنكم ستفلتون من أيدينا ، انتم تواجهون دولة لها امكانياتها واجهزتها ، ان لم تصل اليكم

اليوم فستصل إليكم غداً ، وها هي قد وصلت إليك أنت مع أنه لم يمض على وجودك سنة واحدة على أرضها ، لقد عرفنا عن مجيئك قبل أن تطأ قدماك حدود الدولة ، راقبناك منذ البداية ، موعدك الأول كان في الكراج ولم ينجح ، دبرت إتصالاً آخر في الميدان ، تنقلت من بيت الى بيت ، ظننت أنك آمن في بيتك الأخير ، انظر الى هذه الصور ، إنها صورك ، ها أنت ترتدي جاكيتاً اسود وتغلق باب شقتك القديمة ، ها أنت تسير في الجبل الشرقي وهذه صورتك في جبل النبع ، هنك صور أخرى سأهديها إليك عندما تخرج ، الجميع اعترف وخرج ، حتىهشام اعترف ، إذا أردت أن ترى افادته سأريك إياها ، وها هو الآن منغمس في خلافات مع رفاقه ، زينب خرجت في اليوم الأول لاعتقالها ، هي الآن عند أمها ، حسين عاد الى البيت وإلى الدراسة منذ الأيام الأولى ، همام اعترف هو الآخر ، لكننا سنسجنه ، إنه عضو في اللجنة المركزية وسنسجنه حتى لو اعترف بكل ما عنده ، أما أنت فالفرصة أمامك للخروج مفتوحة إذا أردت ، كنت أراك شاباً مثقفاً ووسيماً وأنت تسير في الشارع ، رأيتك تسير في شارع الحرية بصحبة حبيبتك ريم ، حسدتك ، إنها جميلة وأنت تسير بجانبها ، إذا خرجت تستطيع أن تفعل الكثير ، تكمل دراستك ، تتزوج ريم التي تنتظرك ، ترى أباك وترى أمك قبل أن تموت، أما اذا اخترت السجن فستبقى فيه سنين طويلة ، انني استغرب يا ماجد كيف التقيت بهؤلاء ، إذا كان لا بد من أن تعمل في السياسة فاعمل مع غير هؤلاء ، لماذا هؤلاء ؟ لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب ، جريدتهم كلها شتائم ، لا تعجبهم امريكا ولا يعجبهم الاتحاد السوفيتي ، ولا تعجبهم الدول العربية ولا تعجبهم جبهة الصمود والتصدي ولا يعجبهم مواقف الفصائل الأخرى، لا يعجبهم شيء ،

شتائمهم حاولوا ايصالها الى الناس عبر البيانات والنشرة ، يتغنون بما يسمونه الهبة ، يريدون اسقاط نظام الوادي ولذلك حاولوا دفع المشاغبات لتصبح ثورة كما يقولون ، بالطبع فان النظام ، أي نظام لا يستطيع الصمت ، إنه لامر طبيعي أن يدافع عن نفسه ، كل الانظمة تدافع عن نفسها ، الحزب هو الذي فتح المعركة عبر البيانات وتظاهرات الطلبة في الجامعات ، فقرار النظام هو الدفاع عن نفسه وبالتالي القى القبض على اعضائه ، ماذا استفدتم ! انظر للأحزاب الأخرى ، انظر لجرائدها ، إن الجرائد العلنية أكثر تطرفاً من جرائدهم، أما أنتم !! لقد تحولت زعامة ما يسمى بالقوى الوطنية الى وجاهات تحل مشكلة هنا وأخرى هناك ، همّها بطونها والتفاخر بأنها رموز ووجاهات ، نحن نعرف كل تحركاتهم ولا يهموننا ، ولا يهمنا في نفس الوقت ان يصبحوا وجهاء وحتى لا تتخوف من قولي هذا ، نحن لسنا ضد العمل السياسي ، إذا خرجت إعمل كما تشاء لكن على المكشوف ، اكتب في الجرائد ، تكلم كما تريد ،لكن لا تنخرط في عمل سري ، إذا فعلت سنكتشفك في النهاية وأكبر دليل على ذلك هو تجربتك الحالية ، لم نكن نعرفك قبل سنة وها نحن عثرنا عليك ، أين جمهور الحركة الوطنية ؟! ليس لها جماهير ، أجهزة المخابرات تعمل ليل نهار ، قلت لك إنها دولة ، دولة ستصل إلى كل من يعمل ضدها ، إن لم يكن اليوم فغداً ، ماذا اخترت ؟ السجن عشر سنوات أم الاعتراف عن نفسك والخروج .

فكرت في كل ما قاله مليا ، لم يعد انكار التهمة له قيمة في سجني ، الأدلة التي ذكرها كانت واضحة وصحيحة ، أعرف أيضاً بانهم يستطيعون سجني بدون شهود ، كان باستطاعتي أن أظل صامدا ، لكن

الصمود سيؤدي بي الى السجن هذه المرة ، فهم لم يعتقلوا شخصا عاديا من الشارع ووجهوا له تهمة ، ان اعتقالي جاء نتيجة عملية تحريات طويلة ودقيقة ، فما فائدة إنكار التهمة ، إنها ليست تهمة ، إنها حقيقة ، إذا كنت لن اضيف شيئاً جديداً لمعلوماتهم فلماذا لا أعترف ، لم أصدقة عن اعتراف هشام ، هشام لم يعترف ، لكنهم يعرفون كل شيء عني ، قررت أن اعترف ، يجب أن أخبر هشام بكل ما حدث ، لم اعترف نتيجة جبن في مواجهة التعذيب ، ولكني فكرت وتوصلت إلى هذه النتيجة ، لم اكن راضيا بالكامل عن النتيجة هذه ، لكن هذا ما حصل ، ألا يحق لي أن أفكر ، لقد فكرت ، ليحاسبوني على طريقة التفكير هذه كما يريدون ، لن أخفي شيئا عنهم ، سأقول لهم تفاصيل كل ما فكرت به .

- أسرع بالحليب ، عندنا ضيف جديد . صاح أحدهم .

دخل وفد آخر إلى الغرفة برئاسة صالح ، سلمّوا عليّ وجلسوا ، قال هشام : هذا هو الأخ صالح ، إنه المسؤول الداخلي عن السجن وهو المسؤول عن السجناء السياسيين أيضاً أمام الادارة .

رحبت به .

- من قابلت هناك ؟ سأل .
- في احدى الفترات كنت مع شخص اسمه مجاهد وأظن أنهم افرجوا عنه .
- هل في الزنازين عدد كبير من المعتقلين ؟
- أظن ذلك ، لكنني لا أعرف بالضبط .
- ألم تكلمهم ؟
- لقد كنت اسمع فقط ضربات على الحائط ، ولا أعرف لغة الطرق .

- من حقق معك .
- لا أعرفهم ، لا أعرف اسماءهم لكني احفظ اشكالهم جيدا ، أحدهم طويل أسمر اللون ، والثاني قصير أشقر وآخر ممتلىء الجسم أبيض .
- نعم ، لقد عرفتهم، الأول اسمه هزاع ، والثاني اسمه سعيد والثالث اسمه مروان .
- هناك شخص آخر حقق معي في الليلة الأولى ، له مكتب في الطابق الرابع ، وسيم ، يلبس بدلة وربطة عنق ، ويلبس خواتم في اصابعه .
- مَن يكون ؟
- لا أعرفه
- لا بد أنه رئيسهم
- وكيف عرفت ذلك ؟ سألت
- انني أعرفهم جميعاً ، السجن يعلّم الكثير .

نعم ، السجن يعلم الكثير ، وها أنا أتعلم ، وها أنا أعرف اسماءهم الحقيقية ، لقد رفض هزاع الاعتراف عن اسمه حين سألته ، فبعد وصولي إلى قسم الأمانات وبعد أن تشاجرت مع المسؤول هناك إثر اتهامي بالخيانة ، قادني هزاع إلى غرفة ليست بعيدة ، فيها مكتب واحد وبضعة مقاعد ، أمرني بالجلوس ، جلست ، أمسك اوراقاً وقلماً ، قلت في نفسي : يبدو ان موعد الحساب مع الماضي سيبدأ الآن ، يجب أن لا أفسح له مجالاً للهجوم وتوجيه التهم ، ها نحن الاثنان وحدنا ، هذه هي فرصتك يا ماجد ، لتضعه في الزاوية ، ليس مطلوباً مني أن أقتله بيديّ ، هذا له مكان آخر ، سأقتله بعقلي ، إن لم أوجه أنا له التهمة سيوجهها هو لي ، ارتجفت رجلاي ، لا أظن أن البرد كان هو السبب ، إنه الخوف ، كنت خائفاً فعلاً ، إنني في النهاية إنسان ، ارتبكت ، فكرت

وقلت في نفسي :من لا يخاف فإنه لا يخيف الآخرين ، هل يلاحظ ارتجافي ؟! هو الآخر يرتجف بصورة أخرى ، ؟ إنه لا ينظر نحوي مباشرة ، هل هو إنسان هو الآخر !؟ إنه وسيم بلا شك ، لا ٠٠٠ لا ، بل يصطنع أن يكون وسيماً وهو يلبس البدلة وربطة العنق ، إنه يزيل بعض الغبار الذي علق بثيابه ، يجب أن اكلمه ، يجب أن أطرد الخوف من جسدي وروحي ، ابتلعت لعابي عدة مرات لاطرد الجفاف الذي بحلقي ، سأعمل على نقل خوفي إلى جسده أو لأعمل على أن يكون كلانا بنفس الدرجة من التوتر والخوف ، إنه لا يكبرني سناً إلا قليلاً ٠

رتب اوراقه ووضعها على الطاولة ، مال برأسه نحوها فسارعته : ما اسمك ؟ لم يجب ، يبدو أنه دهش من أنني كنت أنا المبادر للتحقيق، نظر نحوي باحتقار وبتردد الخائف ، ابتلع لعابه هو الآخر ، أخرج علبة سجائره من جيبه ، أشعل احداها وقال : هل تدخن ؟

- لا ، وحتى لو كنت ، لن أشاركك ، ما اسمك ؟
- وهل يهمك اسمي ؟! محاولاً أن يكون هادئاً ٠
- من أية بلدة أنت ؟

لم يجب وظل مبحلقاً ، نهض من مقعده وتجول حوله ، سارعته : لماذا تعمل هنا ؟

دار حول المكتب ،استند بمؤخرته عليه واصبح مقابلي تماماً ثم قال : ماذا تنفعك كل هذه الأسئلة ؟

- حتى اتعرف بك حين أخرج ٠

ضحك وقال : ومَن قال لك أنك ستخرج !

لم يجبني ، وها أنا في السجن ٠

- كيف اعتقلت ؟ سأل صالح ٠

- كنت في البيت أنا وثلاثة رفاق ، ٠٠

قاطعني هشام قائلاً : تعني أنك اعتقلت في البيت ، في أية ساعة ؟

أدركت أنه لا يريد أن أعطي تفاصيل أمام صالح ، فاجبت : حوالي الثامنة مساء ٠

- هل عذبوك ؟ سأل صالح ٠
- كثيراً ، وقد حدث معي أن ٠٠

قاطعني هشام مرة أخرى قائلاً : لماذا أنت متعجل من أمرك ؟!! إن أمامنا عشر سنوات للتحدث ، إذا قلت كل شيء الآن فلن تجد ما تقوله غداً ، وَفرَ الكلام ، وزعه على أيامنا الطويلة التي سنعيشها معاً ٠

لا يا هشام ، لا يا صالح ، لا يا رفاق وأخوة ، لقد هددوني بعشر سنوات في السجن ، لكنهم لم يرسلوني هنا للمحاكمة ، ربما ارسلوني لتحطيمي أو ربما للتجسس عليكم ، سأقول لكم كل شيء مرة واحدة ، لن اخفي عنكم شيئاً ، شريطة أن تسمعوا كل ما أود قوله ، بعدها احكموا عليَ ، اقتلوني إذا أردتم ، افعلوا بي ما طاب لكم ، لقد استسلمت لعدوكم فكيف لا استسلم لكم ، لا ٠٠ لا ، لم استسلم لهم بالكامل ، لقد عقدت صفقة مع المحقق بناء على الحديث الذي جرى بين حسين وهمام ، لقد أخذت إذناً من همام بصورة غير مباشرة ، إذا أردتم محاكمتي فحاكموا همام أيضاً ، حاكموا حسين ، حاكموا أنفسكم أيضاً، أشعر أنني ضعيف أمامكم ، لكنني لم أنته ، سأكمل الطريق بصورة أخرى ، لقد وددت أن أخرج لانقل للرفاق كل الافكار التي تعلمتها بعد اعتقالكم ، لقد كتبت الكثير ، كنت أود أن أنقل لهم كل ما يدور بخلدي واضع اصبعي على الاخطاء التي ارتكبناها ، لقد اقتلعوا قيادة منظمة حزبنا باكملها وحتى تبدأوا من جديد يجب أن تأخذوا

بعين الاعتبار كل شيء ٠

سمعت صوتاً بمكبر الصوت يقول : الجميع إلى الغرف ، على كل مأمور أن يغلق شبكه ، انتهى الوقت ٠

دخل الجميع إلى الغرف وغادر بعضهم غرفتنا ، جاء «المأمور» وعَد من فيها ، انتقل إلى غرفة أخرى ، طلب هشام أن يأتوا بالعشاء ، فرشوا الأرض بالجرائد ووضعوا صحوناً فيها كبد دجاج ، قال هشام : هذا العشاء لك لكننا سنشاركك ، لقد صنعناه من أجلك ٠

من أجلي !! سيشاركونني الأكل ! لو عرفتم يا رفاق ما حدث ، ستطعمونني برازكم ، لو تسمحون لي أن أقول لكم ما يجول في خاطري ٠

- تفضل ٠ قال ٠

زحفت باتجاه الأكل ، أكلت قليلاً ، ألحوا أن آكل اكثر ، لم استطع ، قال أحدهم : هناك الحمام ، إغسل يديك هناك ٠

عدت وجلست مكاني ، التف الرفاق حولي واحداً اثر الآخر ، دار حديث طويل ليعرفوني على أنفسهم ، أطلقوا ألقاباً ومزايا لكل رفيق فتنطلق بعدها الضحكات ويهددون بعضهم تهديدا لطيفا ، قال أحدهم : لن أغني في عرسك بعد عشر سنوات ٠

- لا أريد سماع صوتك عندها ، ألا يكفيني أنني سأسمعه طيلة السنوات العشر !

- التسعيرة عند النظام هذه الأيام «بريزة» ٠

- لهذا السبب يعاني النظام من أزمة اقتصادية ٠

- لا تقلق ، فإن لم يسجنك هذا النظام سيسجنك غيره ٠

- لقد فرح والداي عندما عرفا أنني سجنت ، فهما على الأقل يعرفان

أين اكون ويزورونني عندما يشتاقون إلي ٠

- أما أنا فلقد فرح والداي لانهما كانا يخافان من أن تدوسني السيارات وأنا اتنقل من شارع إلى شارع ، أما هنا فلا نرى السيارات أصلاً ٠

- الحمد لله على كل شيء ، لو لم نسجن لما تعرف بعضنا على بعض ٠

- أتعلمون يا شباب ! والله لو أفرجوا عني الآن لعدت لكم في الغد ، فأنا لم أعد استطيع العيش بدونكم ٠

- ماذا تهذي يا رجل ! أما لو افرجوا عني أنا فلسوف ادور كل البلاد شارعاً شارعاً ، وبقالة بقالة ، وجبلاً جبلاً دون أن أهدأ ، سأحمل على ظهري حقيبة مثل الاجانب ، اضع بها بعض الطعام وسأصبح جوالاً أتعرف على كل الناس ٠

- لا تحلم كثيراً ، سيعيدونك الى هنا في النهاية لإنهم سيكتشفون البيانات إذا ما فتشوا الحقيبة ٠

- ستكون هذه المرة بالحبر السري ٠

- اكتب على أعلى الصفحة : هذا منشور بالحبر السري ٠ حتى يعرف الناس ذلك ٠

حسدتهم على هذا المرح الذي يعيشونه رغم أنهم في السجن ، حسدتهم على الأمل الذي يعيشون من أجله ، حسدتهم على معنوياتهم العالية ، انكمشت على نفسي وابتعدت من الوسادات التي وضعت حولي، جاءوا ببيجامة ألبسها وجلست ٠

اقترب هشام مني وقال : مَع من اعتقلت ؟

ها هو يبدأ التحقيق ، استجمعت قواي ، التقطت لعاباً من داخلي ، جلست جيداً وقلت : مع همام وزينب وحسين ٠

- حسين ؟!

- نعم حسين ، ما به ؟

- كيف جاء عندكم ؟!

- لقد ارهقنا ونحن نلاحقه لنحاول اقناعه بالاختفاء .

- ألم تقرأوا الاعلان في الجريدة .

- قرأناه .

- هل عرف بذلك ؟

- قبل يومين من اعتقالنا .

- وماذا فعل ؟

- صار يرقص .

- ألا تعلم أنها كانت إشارة إتصال بينه وبين المخابرات ؟!

- ماذا تقول ؟! اشارة مخابرات واتصال !!

- ألا تعلم أنه هو العميل وهو الذي سلّمنا وها هو قد سلّمكم أيضاً؟

- ماذا تقول ؟! إن سبب الضربة التي تعرضنا لها هو ضعف الحلقات التنظيمية ، وقد ناقشنا أنا وهمام ذلك طويلاً ، ورفضنا هذا المنطق الذي ينسب حملة الاعتقال لاسباب خارجية ، ثم ان حسين في النهاية قبل بالاختفاء .

- صحيح أن هناك بعض الجوانب كان فيها بعض الضعف ، لكن في نفس الوقت فإن حلقاتنا التنظيمية كانت قوية لدرجة كانت تمنع المخابرات من الوصول إلينا ، ونحن في هذه الحالة أفضل من غيرنا ، فلم يكن هناك مؤسسات جماهيرية ورموز جماهيريين نعمل من خلالها لتشكل نافذة للمخابرات ، لقد قمنا بتقييم الوضع بتفاصيله واكتشفنا أن حسين كان عميلاً ولهذا السبب التحق بنا .

- حسين ! ولماذا لم تخبرونا عنه ؟

- لم يكن هناك وسيلة للاتصال بكم ، عندما أرسلتم صديقاً كنا نود ان نبعث برسالة معه ، لكن الشرطة كانت تراقبه عند شبك الزيارة ولم يعد بعدها ، ونحن من جهتنا لا نعرف اين كنتم تسكنون .

- وكيف عرفتم ان حسّين عميل ؟

- إذا تابعنا كل الضربات ، نلاحظ أن حسين كان يعرف عن ذلك دون أن يتعرض هو للخطر ، لقد أمسكوا قبل سنة رفيقاً على الحدود ، وطلبوا منه صندوق المحارم الورقية دون سواه ، كل من كان يعرف عن الصندوق معتقل الآن إلا هو ، حين اعتقلنا كان يجب ان يكون هناك اجتماع سيحضره حسين ، لم يأت وجاءت المخابرات بدلاً منه ، اعتقل كل من كان يعرف عن الجهاز الفني ولم يعتقل هو ، بالاضافة إلى طريقة اعتقالكم انتم .

- لكن من الممكن ان يكون رجال المخابرات قد راقبونا جيداً ، اكتشفوا خيطاً ولاحقوه .

- لم يسجل ان شاهد أحدنا مراقبة تذكر ، لقد كنا نتنقل في أغلب الاحوال بسيارات اجرة الى المكان الذي نريده واحياناً كنا نستخدم اكثر من سيارة ومن ثم نراقب الطريق حتى الوصول الى مقراتنا .

- لكن ، .....

- اود أن اسألك عن حالته النفسية قبل وأثناء الإلتحاق بكم .

- بعد اعتقالكم كانت حالته النفسية سيئة للغاية ، عقدت معه عدة لقاءات لتشجيعه ، حسم امره واختفى في بيتي .

- هل ناقشتم معه اسباب الضربة التي تعرضنا لها ؟

- نعم .

- بالتأكيد اخبرتموه انكم تَردون ذلك لضعف الحلقات التنظيمية .

- نعم .
- لهذا السبب التحق بكم ليكمل ضربته وها هو قد فعل ، ألا تعلم أن والده صديق لمدير المخابرات ، يسهر في بيته ويزوره ! وألا تعلم ان والده هو الذي أنقذ مدير المخابرات من القتل قبل سنوات ؟!
- ولكنكم تعرفون ذلك من قبل ، لماذا لم تكتشفوه ؟
- لا نستطيع ان نعتمد على صداقة والده لمدير المخابرات لادانته ، فكثيرة هي المرات التي سمعناه فيها يُدين أباه ويلعنه ، ولقد استطاع مساعدة الحزب في اشياء كثيرة ، فلقد قام بمهمام خطيرة ، ولقد تبرع للحزب باموال كثيرة هذا بالاضافة لاشتراكه المالي ، إن المهام المتتالية التي كان يقوم بها كانت تبعد الشك فيه ، لكن الخيوط تجمعت بعد اعتقالنا ، من الممكن أن يحدث خطأ بالمصادفة ، لكن الأمر الآن هو مجموعة الأخطاء والمصادفات التي حدثت ، لقد حدثت بذكاء ، إن في الأمر تخطيطاً لا يستطيع القيام به شخص واحد ، إنه جهاز ، فلو تابعنا مثلاً اعتقال أحد الرفاق في الجبل الغربي ، حدث هذا بعد اعتقالي ، حسين كان يعرف الموعد وهو مَن دبره ، ومع العلم أن الرفيق الذي اعتقل كان يسكن في الوادي الشرقي ، واستغرق وصوله عدة ساعات لضمان أمنه ، لقد كان يركب في سيارة ، ينزل في احد المواقع ، ثم يسير على قدميه للوصول الى أحياء أخرى ، ورغم كل ذلك وحين وصوله مكان اللقاء وفي الموعد ، جاءت سيارة مُسرعة ، وقفت بجانبه ، ترجل منها ثلاثة دفعة واحدة ، ضربوه على رأسه بعقب مسدس فوجد نفسه في بناية المخابرات ، وكان قد شاهد هناك الرفيق الآخر الذي كان على موعد معه .
- وكيف اهتدت المخابرات لبيتي الذي لا يعرفه أحد ؟

- لا نستطيع معرفة التفاصيل الآن ، من الممكن أن يكون قد حمل معه جهاز اتصال ، هل حدث وأن خرج من البيت ؟
- خرج مرة واحدة ليشتري سجائر .
- هل خرج وحده ؟
- نعم .
- كم يوماً مضى بعدها حتى اعتقالكم ؟
- أربعة أيام .
- إذاً تقديرنا في محله ، هذا يعني أنه خرج قبل الأعلان في الجريدة .

هكذا هو الأمر إذاً ، شعرت باحباطٍ شديد ، وضعت يدي على رأسي محاولاً ادراك الحقيقة، فحين اعتقال هشام وباقي الرفاق في ذلك الوقت، طلبنا منه ان يختفي ، طلبنا منه ان لا يذهب الى الجامعة ، وافق ، لكنني وجدته يوماً في الباص المتّجه إليها ، اعدنا الطلب منه أن يختفي في البيت الحزبي ، كان يأتي على الموعد ولكنه كان يماطل في قبوله بالاختفاء ، مر شهران كاملان وهو يماطل ، كان يقول : لا اعتقد انهم يريدونني ، لا يبدو انهم يراقبونني ، وإذا اختفيت ماذا سأفعل ؟ ماذا ستفيدون مني ؟! ما الذي سأقدمه لكم إذا اختفيت ؟! ثم ، هل تعرفون المدة التي سأختفيها ؟ ها أنا التقي بكم ، إذا اردتم مني أن أقوم بمهام محددة سأفعل ، انني لا أتواجد في البيت إلا قليلاً ، أذهب لأنام عند أقاربي أو بعض الأصدقاء ، أذهب لحضور بعض المحاضرات في الجامعة حتى لا اخسر دراستي ، وهذه الخطوات هي جزء من الاختفاء ، لو اختفيت فربما سأصبح عبئاً عليكم في المصاريف ، هذا من جهة ومن الجهةالأخرى لست متأكداً بانني لن اعتقل بعد الاختفاء ، سأخسر أهلي ودراستي من جهة وسأخسر نفسي من جهة أخرى ، كل

الذين اعتقلوا وكانوا على صلة بي لم يسألوهم عني ، هذا يعني أنهم لا يعرفون عني شيئاً ، هكذا أكدت الأخبار سواء القادمة من السجن أو ممن أفرج عنهم ٠

حملت له عدة رسائل من همام يوضح له ضرورة الإختفاء في ظل اعتقال كل الرفاق الذين يعرفونه ، كتب له : إن الاختفاء هو جزء من الحماية ، بل هو افضل اسلوب للحماية ، وإذا ما ثبت ان المخابرات لا تعرف عنك شيئاً ، فستعود الى بيت ابيك ، والى الجامعة ، كلنا نعيش نفس الحالة التي تقول عنها ، نحن نصدق الرسائل القادمة من السجن ، لكننا لسنا متأكدين من صحة كلام الذين أفرج عنهم ٠

لم يرد على تلك الرسالة بشكل مكتوب ، إذ قال لي : لن اكتب ، أخشى إذا ما اعتقلتم أن يُمسكوا رسالة بخط يدي ، أنا أعيش حالة احباط نتيجة الضربة التي حدثت لهشام ، يبدو لي أن هناك شيئاً خطأ ، لا أعرف ما هو ، الضربة التي حدثت اربكت كل افكاري ، لم اعد متأكداً من أي شيء ٠

نقلت كلامه لهمام فأرسل تهديداً له بالفصل من الحزب ، فقال : سأحضّر نفسي وأغراضي للموعد القادم ٠

التقيت به بعد يومين ، اصطحبته لبيت في حي في جبل النبع حيث كان همام يعيش وحده ، كان بيتاً قميئاً مكوناً من غرفة واحدة وساحة خارجية بها مرحاض ، قال : لا أريد أن أعيش هنا ، كل سكان الحي يعرفونني ، لننتقل الى البيت الآخر الذي يعيش فيه ماجد وزينب٠ وكان كلما خرج للمرحاض غطى رأسه ، قررنا أن نترك البيت وننتقل جميعاً الى بيتي في الجبل الشمالي ، أضفى على البيت شيئاً من الحركة والمرح بعكس ما توقعناه ، صنع لنا لعبة شطرنج من الورق

ولعبة أخرى تسمى «اختبار العقل» ، كنا نقتل بعض وقتنا الطويل في اللعب بعدما طولبنا بعدم ممارسة أية مهمة وقتها ، وقبل اعتقالنا بيومين ، قرأت الاعلان في الجريدة تحت عنوان «خرج ولم يعد» رجوا فيه أهله ممن يعرف عنه شيئاً أن يتصل بهم أو بأقرب مركز شرطة ، خبأنا الخبر عنه في البداية ، خشينا أن يفاجئه الخبر فيصدم ، مرت الساعات دون أن نخبره وحين عرفنا بأن ذاك اليوم يكون عيد ميلاده قررنا أن نحتفل به ، غنينا معاً ، ضحكنا كثيراً ، وجدتها فرصة مناسبة لاخبره ، أخبرته ، ضحك ولم يصدق ، رأيته يضحك من أعماقه كأنه اكتشف شيئاً جديداً مفرحاً ٠ لم يصدمه الخبر ، تعامل معه ببساطة شديدة ، قام من مكانه وأخذ يرقص ، أتيناه بالجريدة ، رأى صورته وقرأنا معاً ما كتب ، ضحك كثيراً وحين وصل لجملة تقول : ومن يخبرنا عنه له مكافأة مادية قدرها ألف دينار ، حمل الجريدة فوق رأسه وراح يغني : الليلة يا سمرة يا سمارة ٠ ويرقص ٠

هكذا هو الأمر يا هشام ، خجلت من نفسي ، التفت نحوه قليلاً ، وددت لو أصرخ فيه ، هو يعرف عن عمالة حسين ولكنه لم يخبرنا ، لقد كان هشام سبباً في اعتقالنا ، لقد كان هشام أيضاً سبباً في سقوطي، لماذا يعتقل ثلاثتنا إذا كان بالامكان تجنبه ، كان من الممكن ألا أسقط وألا يُحقَق معي مطلقاً ، الجميع يتحملون ما حدث لي ، أنا أتحمل جزءاً وهمام يتحمل جزءاً أكبر وهشام يتحمل المسؤولية الكبرى ، كان من الممكن أن يرسل لنا خبراً مع أمه مثلاً ، لا ٠٠ لا ، لم يكن باستطاعته ، فهو لم يكن يعرف اسمي ولا عنواني ، لقد وقعت الواقعة وحلت الكارثة ، كانت وسيلة الاتصال الوحيدة عن طريق القيادة في بيروت ، هذه لم يستعملوها ، لقد اخبروهم بأن هناك

اختراقا دون الخوض في التفاصيل ، نقلوا الخبر شفهيا مع أحد الاصدقاء، إننا ندفع الثمن ، إنني ادفع الثمن أيضاً.

هنا ك اختراق ، جاءتنا رسالة من بيروت تقول : بلغنا أنكم لا زلتم تمارسون نشاطاً ، اوقفوه الآن ، هناك اختراق في الحزب بناء على تقييمات هشام والرفاق في السجن . سنحاول أن نخرجكم من الوادي في أقرب فرصة ممكنة ، انتظروا . مكثنا طويلاً ، تحدثنا كثيراً ، بحثنا عن الاختراق فلم نهتد إليه ، تتبعنا تسلسل عمليات الاعتقال وبحثنا عن سبب كل حالة . كان قرارنا أن ليس هناك اختراق أبداً وأن هشام يهذي ، يحاول أن يلبسنا ثوباً لا يناسبنا ، سبب الاعتقال واضح ، وهو ضعف الحلقات التنظيمية وعدم تماسكها ، ورحنا نكتب التقارير والتقييمات لكل جانب على حدة ، جمعت كل الكتب التي تتناول هذا الجانب ورحت أتفحصها كلمة كلمة : ما العمل ، خطوة إلى الامام خطوتان إلى الوراء ، رسالة إلى رفيق ، في النشاط الجماهيري ، ... الخ، تفحصتها وحاولت تطبيق ما ورد على وضعنا ، وأقارنه ، وجدت هناك فرقاً شاسعاً فكتبت : في الاتصال ، في النشرة الجماهيرية ، في أمن الجهاز الفني ، في التعامل مع الاختفاء ، ... ، وجدت أن هناك خللاً ما في كل جانب ، توصلت وهمام إلى أن مجموع هذه النواقص هي السبب في حدوث الضربة ، أرسلنا معظمها إلى بيروت ، جاء الرد : حافظوا على أنفسكم حتى نتمكن من اخراجكم ، من يستطيع أن يخرج فليفعل .

قلت لهمام : بناء على هذه الرسالة يجب أن أحمل نفسي وأعود إلى أرض الوطن .

- ماذا تقول ! أنا والرفيقة لا نستطيع الخروج للاتصال أو لشراء

حاجياتنا ، أنت ستفعل ذلك .

- لكنك لست متاكداً انني آمن .

- أنا لا أعرف شيئاً في الوادي إلا من خلال الرفاق ، أنت ستنتظر حتى نغادر الى بيروت وعندها ستسافر أنت إلى الوطن .

كنت قد توصلت لنتيجة أن ليس هناك فائدة من البقاء قبل أن تأتينا رسالة بيروت ، لكن همام كان لا يسمح بالتوصل إلى هذه النتيجة ، همام يتحمل المسؤولية ، قلت له : يبدو ان لا مجال لنا للعمل هنا ، إذا كنت أنت مكشوفاً للمخابرات والرفيقة كذلك ، وهناك احتمال لأن اكون أنا الآخر مكشوفاً فلا مجال للنشاط الجماهيري ، إما ان ننغلق على أنفسنا في الغرف وإما أن نبني حزباً جماهيرياً ، لا يمكن الجمع بين الأمرين معاً ، أجابني صارخاً: وأين ستذهب ؟! من قال لك بأنك لست مكشوفاً ؟! كيف ستستطيع العودة الى الوطن ؟! عندما تلقينا ضربة من المخابرات قبل عامين ، تبقى عدد قليل من الرفاق وها هم قد بنوا منظمة الحزب بهذا الحجم الكبير الذي وجدته حين قدمت ، يجب أن نتحدى ، يجب أن نبني من جديد ، نجمع خيوط الاصدقاء والانصار ونبني من جديد .

- لكن ، كلانا لا يعرف الوادي جيداً ، أنت قدمت قبل سنة وأنا كذلك ، ليس لنا امتداد جماهيري واجتماعي كبير في هذا البلد ، نحن في النهاية غرباء ، فكيف سنبني من جديد ؟!

- الرفاق في السجن سيساعدوننا .

- ألا ترى أن تجربة هشام والرفاق كانت فاشلة حين قرروا هم بناء المنظمة ؟

- لا ، ليس صحيحاً ، فلم يتعاملا مع الاختفاء بصورة صحيحة ، وهذا

ما توصلنا إليه في نقاشات سابقة .

إن ما توصلنا إليه لم يكن صحيحاً ، لم يكن السبب في الاعتقال ضعف في العلاقات التنظيمية ، لقد كان شيئاً آخر ، إنه اختراق ورفضنا قبول هذا المنطق ، عملت مراسلاً بين الحزب في الخارج وهمّام ، كان كل منا يعيش في بيت ، همّام في الجبل الجنوبي ، زينب في الجبل الغربي وأنا في الجبل الشمالي ، كنت وأنا اتنقل من بيت إلى بيت أراقب كل خطوة أخطوها ، لم أكن أسمح لاحد بمتابعتي ، كلفني ذلك جهداً كبيراً، لكنني كنت اتخلص من أية مراقبة أحس بها ، كل الذين اعتقلوا لا يعرفونني شخصياً ، .. ، أجهزة المخابرات تعرفني ، فمنذ وصولي هنا وذهابي لموعد الاتصال ومكانه في الكراج ، حملت الاشارة ومشيت في شارع الحرية حتى وصولي هناك ، لحقت بي سيارة مرسيدس بيضاء، تجاوزتني ، لحقت بها وتجاوزتها حين توقفت ، أردت أن التقي بالرفاق يومها اذ ان الخيار الآخر انتظار اسبوع بكامله ، انتظرت عشر دقائق ، لاحظت أن السيارة البيضاء تقف قبالتي، لقد عرفته الآن ، إنه سعيد ، المحقق الذي أشرف على تعذيبي في المرة الاولى ، نعم ، انه هو ، هم يعرفونني منذ وصولي ، الأمر أصبح واضحا ، إنه اختراق في أعلى المراتب ، هناك اختراق ، البيت الذي كنت اسكنه لا يعرفه احد ، فقبل اعتقالي بشهر واحد سكنته ولم يُعتقل احد من الرفاق بعدها ، حين رحلت من بيتي القديم، فعلت ذلك ليلاً ، لم الاحظ أن هناك مراقبة أبداً ، في اليوم الذي اعتقلت فيه شعرت وأنا أمر أمام موقف باصات الجامعة بمراقبة ، كان رجل اسمر اللون ، طويل ، يلبس ربطة عنق ، إنه يكاد يشبه المحقق الذي التقيته ، يومها التفت خلفي ، التقت عيوننا ، ظللت ماشياً وعند الزاوية درت إلى اليمين باتجاه موقف الباصات

وتوقفت ، جاء مُسرعاً بعض الشيء فوجدني انتظره ، وقف هو الآخر قربي ، انتقلت إلى الجهة المقابلة فظل واقفاً ، دخلت زقاقاً طويلاً ، اختفيت عن عيونه ، ركضت بكل ما ملكت من قوة ، ركضت نحو اليمين تارة ونحو اليسار تارة أخرى ، صرت بين البنايات السكنية ، صعدت درجاً ، درت نحو اليمين وركضت ، أوقفت سيارة أجرة حتى وصلت الجبل الغربي ، هناك نزلت ومشيت في الشوارع الضيقة ، أوقفت سيارة أخرى أوصلتني الى الجبل الشمالي ، لم الحظ خلال هذه الخطوات أية مراقبة ، وصلت البيت ، اخبرت الرفاق عمّا حدث ، وجاءوا ليلتها واعتقلونا ، من الممكن أن يكون هناك ضعف في الحلقات التنظيمية ، لكن ليس لدرجة أن يعتقلونا هكذا ، ما يقوله هشام صحيح ، لكن ، وأسفاه ، لقد اعتقلنا ، كان بالامكان أن لا نعتقل ، اني اتوصل إلى هذه النتيجة في وقت غير مناسب ، لن يفعل هشام شيئاً سوى تحليل ما حدث ، أما أنا فأتهم بالسقوط .

لاحظ هشام ارتباكي ، نهض واحضر كأس شاي ثم قال : لننسى ذلك قليلاً ، سنناقش كل ذلك بالتفصيل في الأيام القادمة ، هل هناك اخبار من الخارج .

- سيعقدون مؤتمراً هذا الشهر .
- مؤتمر ! قالها بفرح واقترب مني .
- نعم .
- وهل تعرف شيئاً عن المواد التي سيناقشونها ؟
- أعرف بعض الأشياء إذ لم تُتح لنا الفرصة لقراءة الاوراق مكتوبة نظراً للظروف ، ولكن تم نقل صورة عامة عن المواضيع المطروحة من خلال اطراف الاتصال مع الخارج ، أخبرونا بانهم كانوا يحاولون

اخراجنا من الوادي بأية وسيلة لنشارك في المؤتمر .

- وما هي المواضيع المنوي مناقشتها ؟

- سيناقشون عدة مسائل منها الانفتاح على القوى الأخرى والانفتاح الجماهيري الواسع وعلاقة ذلك بالنظام الداخلي ومن خلال رؤيا سياسية اكثر انسجاماً مع الواقع .

- مثل ماذا ؟

- نقد السياسة المتطرفة لدى الحزب والتي أوصلته الى اتخاذ مواقف عدمية لبعض الأمور .

- مثل ماذا ؟

- كان الحزب يرى أن جبهة الصمود والتصدي لن تصمد ولن تتصدى ولذلك رفضها بالكامل ورأى أن البديل يكون من خلال جبهة تضم القوى التقدمية في كل البلدان العربية ، لكنهم الآن يقولون بأن هذه الجبهة رغم ضعفها في الصمود والتصدي فإنها الحلقة الابرز رسمياً والتي يجب دفعها من خلال القوى الجماهيرية لاتخاذ خطوات اكثر تقدماً واكثر عملية في مواجهة الدول الاكثر رجعية ، ...

لمست أنه شعر بالفرح وقال : لا نستطيع تحديد موقفنا بناء على حديث نقل مشافهة وقبل أن نعرف كل التفاصيل ونتائج المؤتمر ، ثم الآن ، سأراك غداً .

أطفأت الأنوار ، نام الجميع وبقيت وحدي أتقلب في الفراش ، أنهض وأذهب إلى المرحاض وأحاول أن أنام دون فائدة ، فأنا لم أخبرهم بما حدث ، لم يسألني عمّا حدث أصلاً ، لقد ضاع الحديث في أشياء أخرى، سأحاول أن أنام لاستجمع قواي في الصباح ، المعركة مع هشام ستبدأ صباحاً ، سأصحو باكراً وأقول كل شيء ، سأبدأ حديثي معه منذ

اللحظة الأولى لاعتقالنا في البيت ، سأدخل مشاعري طوال فترة الاعتقال ، سأقول له : انتظر حتى تسمع القصة كاملة وبعد ذلك حاكموني : في تلك الليلة ، في الثامنة مساء ، سمعت صوت طرقات على الباب الخارجي ، أشرت على الرفاق أن يختبئوا في الغرفة الداخلية ، أعادوا المقاعد إلى أماكنها الطبيعية حول طاولة الوسط بينما رحت ألملم أدوات كل من لعبتي الشطرنج واختبار العقل ، سمعت الطرقات تتعالى أصواتها ، ظننت في البداية انه خالي ، وبما أنه لا يعرف أن أحداً يسكن معي طلبت منهم أن يدخلوا ، خفت ، فكرت بأنه لو شاهد زينب من خلال النافذة سيذهب بعيداً في استنتاجاته ، قررت ان اخفي الامر عنه وان انكر أن هناك احداً قد شاهده .

الطرقات ازدادت حدة ، قلت بصوت عال : انتظر ، اني قادم . اسرعت نحو الباب الخارجي ، فتحت نافذته الصغيرة فاذا بأحدهم يضع رأسه في مواجهتي مشهراً مسدساً قرب أنفه ، قال هامساً : لا نريد إزعاجاً ، لا تغلق النافذة ، افتح الباب بهدوء . لم أصدق ما رأيت ، رأيت اشخاصاً آخرين يقفون حوله ، هؤلاء ليسوا بلصوص وبالتأكيد شاهدونا نحن الاربعة وأنا لا أملك شيئاً ، قلت في نفسي : لقد جاءت ساعتنا ، اليوم هو يوم الحشر ، إنهم كلاب النظام ، ماذا أفعل ؟ هل افتح الباب كما طلب أم ماذا ؟!

أغلقت النافذة دون أن أدري وركضت نحو الغرفة الداخلية صائحاً : شرطة ، شرطة ، اخرجوا ، اجمعوا الاوراق لحرقها .

أسرع ثلاثتنا إلى المطبخ بينما ظلت زينب في الغرفة ، أشعلت الغاز ووضعنا الاوراق فوق النار لئلا يعرفوا أسرارنا ، سمعت صوت زجاج يتكسر ، نظرت من طرف الممر إلى الباب الخارجي فإذا بأحدهم يحاول

ادخال يده من نافذته ، صحت في الرفاق أن يسرعوا بحرق الاوراق فاذا بصوت ينادينى من خلف نافذة المطبخ أن نفتح الباب ، لحظات فاذا بحوالي عشرة رجال يقفون على باب المطبخ وفي الممر مشهرين اسلحتهم صائحين : ارفعوا ايديكم ، وجوهكم نحو الحائط .

رفع كل منا يديه إلى أعلى ، درنا نحو الحائط وصوت الاوراق تأكلها النار ببطء ، أمسك بي اثنان ، قاداني نحو الغرفة الخارجية ، أمراني بالتزام الهدوء ، قلت : إنني ارتدي ملابس النوم وأنا حافي القدمين ، انتظر حتى ارتدي ملابسي .

أجاب احدهما : لا ضرورة لذلك ، أين جواز سفرك ؟

- في الحقيبة .

فتح الحقيبة ، أخرج أحد سراويلي واضعاً وسطه في فمي ورابطاً طرفاه حول عنقي قائلاً : وجهك نحو الحائط .

أشرت بيدي نحو ملابسي لابدلها ، أمسك بشعري والقى برأسي نحو الحائط ، شعرت بدوار ، قلت في نفسي : لا مجال لإن أعيش دواراً في هذه اللحظة ، الرحلة لم تبدأ بعد ، يجب أن استعيد كامل نشاطي العقلي منذ هذه اللحظة بالذات ، كان يمكنني أن أعيش حياتي كما أريد قبل الآن سواء لعبت أو ضحكت أو رقصت ، أما الآن فيجب ان أظل متيقظاً ، هم أيضاً متيقظون ، لقد ربطوا وثاقاً حول فمي لئلا أهتف بسقوط النظام كما فعلت أنت يا هشام ، لا يريدون أن نفضحهم أمام الجيران ، يجب أن استعيد كامل قواي العقلية رغم الألم الذي أحسه في جبيني ، المجابهة بدأت الآن ، يجب أن أشعره انني القوي غير القابل للكسر ، قلت له : كلب . خرجت هذه الكلمة متقطعة لكنه فهمها ، أمسك بشعري مرة أخرى وطلب من الآخر أن يقيد يديّ ورجليّ .

التفت حولي ابحث عن رفاق آخرين فلم أجد ، كنت وحدي ، قلت في نفسي : سأواجه كل هؤلاء وحدي ، سأواجه غيرهم وحدي ، لم تعد المجابهة الجماعية تفيد منذ الآن ، ليدافع كل منا عن نفسه ، يجب أن أنسى ما يعانيه الآخرون الآن ، لم أعد مسؤولاً عن أمنهم ، جاءت لحظة المجابهة ، فليجابه كل منا حسب قدراته ، سأركز الآن تفكيري في الكيفية التي سأواجههم بها ، لأعمل على الحفاظ على ذاتي ، ذاتي النضالية والمكافحة كما خبرها الآخرون ، سأحافظ على تراثي المتراكم ، المبدأ الأساسي المتفق عليه هو : لا تقل شيئاً ، لا تقع في الفخ ، ليس بيننا وبينهم حقائق مشتركة ، حقيقتهم هي القمع في خدمة النظام وحقيقتنا هي النضال لينال الشعب حريته .

امسك الحارس بي ، شدني نحوه وأمرني أن أسير ، حاولت ، كانت خطواتي قصيرة ، صاح : اسرع ، "اقفز . قفزت عدة مرات ، فطنت بعدها انني لست في عجلة من امري ، سرت زحفاً ، جرني ، وقعت أرضاً ، أمسك بي وأوقفني ، جرني جراً ، شعرت بألم شديد في قدميّ ، كل جسدي كان معتقلاً ، حملاني الى السيارة ودفعاني نحو المقعد الخلفي وجلس اثنان حولي ، فتح الباب الأمامي والقوا بهمام فيه ، اتصلوا بقيادتهم ليخبروهم ان كل شيء جاهز ، في الطريق ملت على مَن يجلس على يميني قائلاً بهزء : هل تعمل رجل مخابرات !

- اخرس . صاح .

- ألا تستحي من نفسك ؟!

ودون أن يجيبني كان قد القى بقبضته في وجهي ، هززت رأسي نحو اليمين ونحو اليسار ، فاذا بهمام يتململ من أمامي ، أدار وجهه نحو من ضربني وصاح : اخرس انت يا كلب .

انهالت لكمات عليه وعليّ ، صحنا في وجهيهما ، أمسكانا جيداً وأجلسانا ، قلت له ثانية : هل تتقن استعمال العنف ؟

- نعم ٠ مكشراً عن انيابه ، ومحملقاً عينيه ٠
- هذا لن يفيدك ٠ قلت ٠

حين انزلونا ، امسك بي نفس الشخص الذي ضربني وقال : ماذا دهاك لتقوم بهذه الأفعال ؟!

- ألا ترى ما أجمل الطقس ! رددت ٠
- لكنك لن تنعم به بعد الآن ٠
- بسيطة ، عشر سنوات وسأعود إليه ٠

سأخبره بكل شيء ، منذ اليوم الأول لاعتقالي وحتى قبل ذلك ، سأخبره عن كل ما قمت به من خطوات نضالية بعد اعتقاله ، فلا يعقل أن يحكم على ما حدث دون ربطه بسياقه ، أنا جزء من التجربة العامة والتي يجب أن أشارك بتقييمها رغم سقوطي ٠

التفت نحو هشام فوجدته لا زال نائماً ، سألت : ألا توقظونه ٠

- هشام لا يصحو مبكراً ، سيستيقظ وحده ٠

تناولت الفطور و اصطحبني الرفيق حاتم ليعرفني على السجن ، رأيت الساحة تعج بالسجناء وهم يتمشون ، رأيت عالماً لم أكن اتوقعه، لم أشعر انني في سجن ،إنه عالم آخر ، تطلعت نحو الغرب الشمالي فرأيت بيتاً اعرفه ، سألت الرفيق فقال : هذا الجبل الشمالي وهو الجبل الوحيد الذي نستطيع رؤية جزء منه ٠ قلت : أتعلم ان ذاك البيت كنت أود السكن فيه ، آه لو سكنته لكنت على الأقل عرفت أين يقع السجن وكيف يروح السجناء فيه ويجيئون ٠

- تعال لترى السجن ، إننا في سجن كبير ، إننا في قرية صغيرة يقطنها قرابة الألف لكنها محاطة باسوار عالية بطول ستة امتار ، هناك سجن للنساء يقع في الطابق الثاني لا نستطيع رؤيته ، هذا الشبك الذي نحن فيه اسمه الشبك الأول ٠
- وماذا يعني شبك ؟
- تستطيع أن تسميه حياً من الأحياء ، تزور الغرف كما تزور بيت أبي العبد وأبي محمد في بلدتك ، تدعوهم لتناول الغداء او السهر احياناً ، هذا الشبك مخصص للسياسيين رغم ان هناك بعض الغرف لسجناء مدنيين ، كما ترى فان ادارة السجن تقع مقابلنا على الطابق الثاني ولهذا السبب اختاروا هذا المكان حتى نظل تحت المراقبة ، انظر هذه المقاهي ٠
- مقاهي !
- نعم ، في هذا الشبك اربعة مقاهٍ نملك واحداً منها ، ومن مجهودنا نعيش ، نشتري ما نحتاجه ونعيش ، السجن بالنسبة لنا مثل الفندق لكننا لا ندفع اجرة السكن والمياه والكهرباء ، عدا ذلك فنحن نقوم بكل شيء بانفسنا ، هناك أناس اغنياء وهناك فقراء ، حتى في السجن هناك مستفيدون ويجنون اكثر مما يجنونه خارج السجن ، فهذا المقهى الذي تراه امامك يربح في اليوم الواحد اكثر من خمسة عشر ديناراً ، وصاحبه يعيل اسرته خارج السجن، هذه الغرفة هي مخيطة، وهذه غرفة تنجيد ، وهذه لبيع الخرز ، وهذه مشنقة ، وهذه لاستلام الخبز، وهذا هو الجامع ، وها نحن ندخل الشبك الثاني ، ما يميزه هو ساحته التي تقام فيها المباريات ٠
- مباريات !

- نعم ، هناك مباريات داخلية وهناك مباريات خارجية ، تأتي فرق من الخارج ، وهذه هي البقالة العامة التي نشتري منها ، بالاضافة الى بقالات صغيرة في كل الاشباك ، نشتري الدجاج واللحم والسكر والفول والحمص وكل شيء ، ومن هنا نتوجه الى بوابة السجن ، ها هو شبك الزيارة ، كما ترى فانهم بنوه بحيث تشعر أن الزائرين هم المسجونون ، هنا تقع عيادة السجن والمشفى ، فيه بعض الأسرّة ، وهنا على الناحية اليسرى يقع سجن الأغنياء ٠

- هل هناك سجن للأغنياء وحدهم ؟

- نعم ، للأغنياء واصحاب الجاه ، فعلى اليمين تقع "الدار البيضاء" وعلى اليسار الغرف الانفرادية المستقلة لكل شخص أو اثنين ، امامك نافورة السجن وبركته ، وهنا نُسلم اكياس النفايات صباحاً ، وهذا هو الشبك الثالث ، ما يميزه هو "السفارة" ، انها غرفة كبيرة يسكنها سجناء كثيرون ، معظم زائريه هم من ذوي القضايا الاخلاقية والمحكومين لمدد قصيرة ، وهي تستعمل ايضاً للعقوبة ، ففيها يعيش الزعران واللواطيون والسراقون ، أما هذه فهي غرفة للرياضة، نلعب فيها تنس الطاولة ، وهذه غرفة الحلاقة ، وهذه المكتبة وهي بريد أيضاً ٠

- مكتبة ؟

- نعم ، فيها بعض الكتب الجيدة ، وفي غرفتنا مكتبة خاصة ، نشتري من الخارج ما يسمحون بادخاله ٠ وهذه سينما ٠

- ماذا ! سينما !

- نعم ، سينما تعرض فيها الافلام التي تصلنا ، بعضها يكون جيداً ، وهي في نفس الوقت تستعمل كمسرح ٠

- انكم تعيشون في بحبوحة ، لماذا لم أعرف ذلك من قبل ؟

- رغم كل ما تراه فنحن في النهاية نعيش في سجن ستحس به مع مرور الأيام ، على مخرج الشبك هنا ترى المطبخ نتسلم منه البيض والخضار رغم عدم كفايتها ، ولا نتسلم ما يطبخونه ٠

- لماذا ؟

- انه رديء جداً حتى باللحم الذي يطبخونه ، يأكله فقط حثالة المجتمع والذين لا مأوى لهم في الخارج أصلاً ، وهذا هو الحمام العام للسجن، وهذه هي المدرسة ، انها غرفة فيها لوح وبعض المقاعد ، نحن الذين نقوم بالتدريس لطلاب التوجيهي ولمحو الأمية ، دعنا نخرج إلى الشبك الخامس الذي يتميز بساحته ومقاهيه ، وبين الشبك الرابع والثالث تقع "الفورة" ، انها المراحيض العامة ، وهنا ايضاً غرفة المجانين ، ٠٠٠

عُدت للغرفة مصاباً بالدهشة ، هذا ليس سجناً ، انه عالم لم اعرفه من قبل ، عالم واسع ، واسع جداً ، لماذا كنت اخشاه ! لقد تصورت انني إذا ما سجنت سأعيش في غرف قميئة مغلقة ، مليئة بالرطوبة والعفن، والانفاس المكبوتة تخنقه ، لكنني وجدته عالماً آخر ، إنه ليس بسجن، آهِ لو كنت اعرفه لما فعلت ما فعلت ، لا بد ان هناك من يتمنى ان يعيش فيه ، السجن ليس رهيباً كما تصورته ؛ إنني احتمل ان اعيش فيه طوال العمر ، هذا ليس سجناً ، السجن يتحول داخلي أنا ، وماذا حتى لو كانت ظروفه اشد قسوة ! أبسبب التعذيب أخاف هذا السجن ! لماذا ! انا الحقير ، انا المهان ، أنا الضائع الآن ، انا الساقط ، لماذا حرمت نفسي من التمتع بما رأيته ، ! لماذا سأظل غريباً عن هذا العالم الجديد! إنه فقط من حق المناضلين ، وحين وقعت على إفادة امام

المخابرات صار السجن لا يخصني ، أين أنا الآن مما كنته حتى وأنا تحت التعذيب، لقد كنت هادىء البال ، كنت شاعراً ومرهفاً ، غنيت بصوتي الذي كان جميلاً "أنا من تحفر الاغلال في جلديَ شكلاً للوطن" ، فبعد كل نوبة تعذيب ، كنت أعود للزنزانة شامخاً ، فرغم مرور الساعات بطيئة ومملة دون القدرة على قتلها ، ورغم أنني كنت أعود كطفل يتعلم المشي من جديد ، وبقع الدماء تزداد زرقة والألم يسري في المفاصل والعمود الفقري والرقبة ، إلا أنني كنت أحس انني خرجت من معركة منتصراً عليهم ، كنت أشعر بالزهو لتحملي كل هذا العذاب ، استرجع ايامي الاولى بارتباطي بالحزب ، يوم كنت أشعر بجسدي يطير كالفراشة من زهرة إلى زهرة ، أعمل على تلقيحها ، أبعث فيها روح الاستمرار والحياة ، أعرف مهمتي جيداً ، أتقن عملي بصورة رائعة ، أعمل كل يوم ، كل ساعة ، كل ثانية ، لم يكن النوم بالنسبة لي سوى تناول قسط من الراحة لجسدي لاعود أعمل من جديد ، أما روحي فلم تكن تنام أبداً ، كانت تُحلق دوماً فوق جسدي ، أمام عيني ، ترسم لي احلام المستقبل ، أعيد كل ما قرأته لاحاول رؤية الصالح لمجتمعاتنا ، كل كتاب أقرأه أجد فيه الكثير ، كنت شعلة للاخرين ، ما أجمل أن اكون شعلة للآخرين ! كم تمنيت ان اعتقل لارسم تجربتي الخاصة ، اتعلم كل شيء . كنت أشعر بلذة الألم وأنا احاول المشي ، وكلما مشيت اتخلص من الألم شيئاً فشيئاً ، اتخلص من انحناء ظهري ، أمارس بعض التمارين الرياضية لادغدغ عضلاتي المتيبسة ، كنت كمن يرقص ، ابتسم ، استلقي ثانية على الفراش . أبحث في كل زاوية من الزنزانة ، أجد اسماء لم أسمع بها من قبل ، اقترب من شعار «الصمود يحقق الانتصار» فأقبله ، كان اسم هشام مكتوباً بجانبه ، أضع كفي عليه كمن يصافحه ويشد على يديه ، أما الآن فانني أشعر بالانحطاط إلى اسفل الدرجات ، انني الآن لا شيء ، لماذا حدث كل ذلك ؟! أين هشام ، سأوقظه وأخبره عن الجريمة التي اقترفتها .

ذهبت إلى الغرفة فوجدت افواجاً من المهنئين ينتظرونني ، استيقظ هشام ، وددت لو يخرج كل من في الغرفة ويتركونا وحدنا ، رحت اجيب باختصار ، لكن هشام كان مسترسلاً ، تنطلق الضحكات من وقت لآخر ولا أملك سوى مشاركتهم باصطناع ابتسامة ، جاء إلى الغرفة رجل يضع عباءة فوق كتفيه ويلف بيديه باقي جسده ، كان يقترب من الخمسين ، سَلم علي وجلس ، تصورته زعيم عشيرة ، كان متحدثاً لبقاً، حدثنا عن قصته مع الشرطي الذي تطاول عليه فضربه وسجن بسببه، كان يبدو مزهواً ، مفتخراً بكل ما حدث ، روى كل شيء بتفاصيله والرفاق يصغون ، قال : هذا الشرطي الذي تطاول عليَ ما زال «مكلفاً» ، إنه و لد صغير لم يتجاوز العشرين ولأنه وضع على رأسه شعار الدولة ، صار ينظر الى الناس على أنهم أقل منه ، كنت اقف في الطابور على محطة الباص ، ويبدو أنه كان يود أن يستقله أيضاً بالمجّان ، لم يقف في الطابور مثلنا ، تجاوزنا حتى وصل إلى بابه ، وقف هناك وصاح فينا : يجب أن تدخلوا الباص واحداً واحداً وبدون إزعاج ، امتثلوا لأوامر الحكومة . فرد عليه احد الواقفين في الطابور : وهل رأيت إزعاجاً أو فوضى ؟! كل الناس يقفون في الطابور وأنت من تجاوزته ، أنت من اتيت لتفتعل الفوضى .

أحمر وجهه واعتلته نخوة الشباب ، خلع حزامه من حول وسطه ، اقترب من المعترض وراح يضربه بكل قوة قائلاً : هل تعني أن الحكومة تخلق الفوضى ؟! لم احتمل ، أمسكته من كتفه وهززته

محاولاً إبعاده ، رفع حزامه عالياً محاولاً تسليطه نحوي ، دفعته بكل قوتي ، فاذا به يقع أرضاً ، دست عليه بقدمي وقلت : الولد ولد حتى لو اصبح شيخ بلد . جاءت الشرطة وقبضت علي والقوا بي في السجن .

سمعت كلماته جيداً ، تمنيت لو كنت مثله ، لا انتمي لأي تنظيم سياسي واصطدم مع الحكومة كما فعل ، أمعنت النظر في عيون من حوله فوجدتهم مشجعين لتحديه ، وراحوا يعقبون بكلمات هنا وهناك محاولين استثارته من جديد فيعود ويسهب في قصص أخرى .

أغلقت الأشباك ، تناولنا الغذاء معاً ، شربنا شاياً فاذا بالاشباك تفتح ثانية ، لبس هشام ثيابه وحذاءه ، خرج بضع دقائق وعاد مع رفيقين ، اقترب نحوي وقال : ما رأيك أن نشرب شيئاً معاً في الخارج .

ها هي ساعة التحقيق والمحاكمة قد بدأت ، أصبت بالهلع في داخلي ، تلعثمت في البحث عن لعابي ، لبست الحذاء مسرعاً وسرت بجانبهم ، وصلنا الشبك الخامس ، جلسنا في شبه دائرة ، قال هشام : نرحب بك يا رفيق ، ماذا تشرب ؟

- لا شيء . قلت

- سنسقيك شيئاً لم تعرفه من قبل ، سنشرب «إيمر» .

ستسقونني المر كما اعتقد ، إن كنتم تستقبلونني الآن فستلقون بي كما الجيفة بعد قليل ، هذه الابتسامات لن أراها بعد قليل . جاءوا بالشراب ، تذوقته ، فافتتح هشام الجلسة قائلاً : ماذا حدث معك ؟

استجمعت كل قواي العقلية ، عدلتُ من جلستي على المقعد البلاستيكي وقلت : اسمعوني حتى النهاية ، في النهاية اعترفت ووقعت على تعهد .

التقت نظرات الرفاق محتدة ، قابرة للبسمة التي كانت منذ قليل وراحت السجائر تعلو وتهبط على شفاههم ، حدثتهم عن التعذيب في الزنازين ، وأمي وريم والصفقة .

قال هشام : هل انتهيت من كل شيء ؟

- نعم ، هناك بعض التفاصيل لكل حادثة على حدة .

- عد للغرفة الآن وسنراك بعد قليل .

ذهبوا مسرعين نحو الشبك الأول ، وددت لو لم أعرفهم من قبل ، تمنيت أن أكون أحد أفراد الشبك الخامس ، لصاً ، قاتلاً ، زانياً ، تاجر حشيش أو اي شيء آخر ، غُصت في أعماقي وأنا أرى السجناء يتمشون جماعات جماعات ، سرت وحدي ، فانا لا أعرف غير هشام ورفاقه وها هم قد سبقوني لشبك المناضلين ، لم أعد مناضلاً ، التاريخ الذي بنيته ضاع ، لقد أصبح تاريخهم وخرجت منه وحدي ، سرت متمهلاً أعقد يديّ على صدري تارة وأدخلهما في جيوبي مرة أخرى ، نظرت نحو زاوية من الساحة الخارجية للشبك الأول فرأيت الشفاه تنبض والأيادي تعلو وتهبط ، دخلت إلى الغرفة وجلست على الفراش ، اقترب الرفاق مني ليتعرفوا عليّ ، على بلدتي ودراستي واخواني وأمي ، رأيت هشام يدخل الغرفة ، ينادي أحدهم ويخرج ، يرجع ثانية ينادي آخر ويخرج ، ناداهم جميعاً فاصبحت وحدي ، عاد الرفاق دون أن يقتربوا مني ، سمعتهم يدندنون باغانٍ أو يمسكون كتباً يتيهون فيها ، أيقنت أن هشام أخبرهم ، التصقت بالحائط ولم أعد أنظر نحوهم ، مرت حوالي الساعة فاذا بهشام يناديني ، قفزت من مكاني نحوه كطفل شعر بالذنب فلبى طلب والده ، خرجنا معاً فقال : أود في البداية أن ابلغك بأنك لم تعد رفيقاً ، أنت مفصول .

- أعرف ذلك قبل أن أوقع على الافادة . قلت بخشوع .

- ثانياً أريد معرفة بعض التفاصيل عن كل كلمة قلتها وعندها سنخبرك بقرارنا التالي ، هل عذبوك ؟

- كدت أموت من التعذيب . مؤكداً .

- لا يبدو ذلك ، أين دلائله ؟

خلعت قميصي رغم البرد ، وأريته ظهري ، خلعت الجربان وأريته قدميّ .

- لا يبدو ان التعذيب كان قاسياً . قال بحدّة .

- ولكن هذه آثاره مع العلم أنه قد مضت أيام كثيرة عليه .

- هذا التعذيب ليس أكثر قسوة من ضرب طلاب المدارس من قبل اساتذتهم .

إن هشام لا يصدق ، ربما يتهمني باكثر من ذلك ، لقد حدثته قبل قليل عمّا واجهته وهو الآن لا يصدقني ، المرة الاولى للتعذيب كانت رهيبة ، لاول مرة أتعذب ، وجدت نفسي بين أربعة محققين ، أسندت ظهري إلى الحائط المقابل للمكتب بعد أن قال سعيد وهو يجلس على مقعد وراء المكتب : اهلاً وسهلاً . ظللت صامتاً اتلفت في تلك الوجوه أتعرف عليها ، أما هزاع فقد كان يجلس بجانبه ، وهما اللذان ضرباني أنا وهمام أثناء رحلة الاعتقال ، أمسك الأشقر بالقلم وقال مفتتحاً الجلسة :

أنت تعرف بأننا الآن اعتقلناكم جميعاً ، بمعنى آخر : الطابق انتهى ، ولا يفيدك أن تبقى هنا وتتعذب ، لنعمل على انهاء كل شيء بسرعة .

استجمعت كل ما لدي من قوة وقلت : أنا لا أعرف عمّ تتحدث ولا أعرف طوابق .

تصلبت ملامح وجهه وقال مبحلقاً : هل تريد أن تعترف طوعاً أم كرهاً ؟

- ليس لدي شيء اعترف به .

- وماذا عن الثلاثة الذيْن وجدناهم في بيتك ؟ صرخ .

- لا أعرف احداً ، لقد اعتقلتموني وحدي .

تقدم هزاع نحوي وسارعني بلطمة على وجهي صارخاً : أتتحداني يا حيوان ؟!

عدّلت من وقفتي وتماسكت قليلاً محاولاً أن لا أتلقى ضربة أخرى ، نهض سعيد عن مكتبه وقال سائلاً هزاع عن التحدي الذي أشار إليه ، فرد عليه : قال هذا الحيوان بانه سيخرج بعدعشر سنوات ولا يهمه ذلك .

اسرع نحوي ولطمني على خديّ وأذني ، أحسست بأذني تصرخ ، أزيز يصل عبرها إلى اعماقي ، وضعت يديّ على وجهي ، أخذت شهيقاً لاستعيد وضعي الطبيعي ، لم استطع ، صرخ بي أن انزل يديّ ، لم انزلهما ، أمسك كتفي والقى بجسدي نحو الحائط ، أمسك شعري بكلتا يديه وضربني بالحائط ، أحسست بدوار شديد وبألم يكاد يحطم رأسي وطنين في أذنيّ ، هدّني الرعب هدأ، ناداني الألم في كل ناحية من رأسي، والرغبة بعدم البوح بأية كلمة تشدني من الطرف الآخر ، تماسكت بكل ما استطعت ، استجمعت قواي وقررت أن لا أفقد وعيي،فتحت عينيّ على سعتهما ودققت النظر فيهما فاذا بسعيد يغرس ركبته بين رجليّ ، هزني ألم شديد . أغمضت عينيّ وانحنيت قليلاً إلى الامام ، فتحت فمي وتأوهت ، انهالت اللكمات على ظهري ووجهي بينما كان الألم يعتصرني ، جاءتني لطمة على وجهي فاذا بي ملقىً على الأرض ،

صرخ سعيد فيهم ان يوقفوني ، وقفت بينما صرخات صامتة تنطلق من بين شفاهي ، جالت عيناي فيهم واحداً واحداً ، منعت بكل ما استطيع زواغهما أو حتى اغماضهما ، لم أدر أين اضع يديّ، القيت بجسدي نحو الحائط محاولاً الارتكاز عليه فاذا بي أجد نفسي جالساً ممدداً على أرض الغرفة ، التفوا حولي ، احاطوني من كل ناحية والحائط يسندني ، اقدامهم أمامي ، سيقانهم تقف اعمدة طويلة تمنع الهواء عني ، ارخيت رأسي محاولاً أخذ قسط من الراحة فاذا بقدمه وساقه تروح وتجيء مسرعة في صدري ووجهي ورجليّ ، قال :

- هل تعترف أم تحب أن نكمل لعبتنا ؟

صمت ولم أجب ، أعاد السؤال ، قلت : لا أعرف شيئاً .

صاح بأحدهم أن يُحضر العصي ، قلت في نفسي : بعد كل ما فعلوه بي لا يمكن أن يضربوني أكثر . احسست أنه يشير بعينيه للآخرين ويقول شيئاً ، جاءت العصي ، أمسك كل منهم بواحدة ، وقال : هل تعترف ؟

- ليس لدي شيء اعترف به .

أمرني أن انهض ، وضع عصاه تحت ابطه ، اخرج منديلاً أبيض من الخزانة ، أمرني أن أدير ظهري وشدّه حول عينيّ ، أمسك يديّ وربطهما معاً ، قادني اثنان يمسكان بمرفقيّ وسارا بي ، حاولت أن أبحث عن منفذ أرى من خلاله فلم أجده ، رفعت رأسي ، اخفضته دون فائدة وصوت الأشقر يقول : من هنا إلى اليسار ، دُر ، دُر ، دُر ، الى اليمين ، دُر ، دُر ، دُر ، اصعد الدرجات ، اصعد ، اصعد ، أسرع .

خارت قواي ، لم تعد رجلاي تحتملاني ، معدتي تسقط إلى أسفل، دقات قلبي تتسارع وصوت شهيقي وزفيري يعلو شيئاً فشيئاً ، وأسمع

صوتاً يقول : فوق ، فوق ، أصعد . وأنا أصعد ، أصعد ، أصعد ، الدرجات اكلت اظافر طرفا قدميّ وتشتعل الحرارة بهما وأنا أصعد ، وقعت على حافة درجة ، قال : قم . لم تر بعد شيئاً ، اصعد ، لف ، اصعد . جراني على درجات دائرية ،*هكذا أحسست ، صعدت كثيراً ، سمعت صوت ضجيج محركات تهز جسدي ، قرّباني نحوها ، دفعاني نحو هواء ساخن فيردني إلى الخلف ، شعرت بانهم سيلقون بي على احداها ، شعرت بانهم سيتخلصون مني ، مرّراني بجانبها ، خَفَ الصوت شيئاً فشيئاً ، قاداني نحو سلم آخر ، لم استطع معرفة إن كنت اهبط أم أصعد ، هب هواء بارد على وجهي وكل جسدي ، شعرت بانني على سطح البناية كلها ، ظننت انهما سيلقيان بي من هناك ، حاولت أن أمسك باحدهما فلم استطع ، غرست قدميّ في الأرض محاولاً وقفهم دون فائدة، امراني بالوقوف ، وقفت ، أزاحوا رباط اليدين والعينين فاذا بي في غرفة طويلة ، مغلق طرفها بباب حديدي والطرف الآخر لا يكاد ينتهي، إلا بممر من بعيد ، اغمضت عينيّ عدة مرات وفتحتهما ، رأيت اكثر من عشرة جنود يحمل كل منهم خيزرانة ، ويلوح بها في الهواء ، اقترب الأشقر وقال : هل تعترف ؟ لم أجب ، صرخ : هل تعترف ام نبدأ جولتنا ؟

- افعلوا ما تريدونه . قلت .

- هل تعترف ؟ هل تعترف ؟!

- ليس لديّ شيئاً أقوله .

- أنربط رجليك بهذه العصا التي تراها ام ترفعها وحدك ؟

نظرت نحوها ، عصاً غليظة وعلى طرفيها حبل ، تذكرت ما قيل حول الرفيق حاتم من انهم استعملوها معه وكاد أن يُشل ، التفت نحو

المحقق وقلت : سأرفعها وحدي ، رفعتها ، قال : أمسك بهما جيداً وإلا ٠ رفعتها ، أمسك بالخيزرانة ووقف الى يميني بينما وقف الأسمر يحمل واحدة اخرى إلى يساري ، وجندي يقف أمامي ، انهالت الضربات متتالية، حاولت أن أعدها ، لم استطع متابعتها ، صاح ان أرفع رجليَ ، صحت متألماً ، صرخت : آخ . صرخ : لا تصرخ يا كلب ٠ زاغت عيناي ومالت رجلاي ، وانسكب دلو ماء على رجليَ وجسدي ، اختلط الماء بالعرق ، قال : انهض ٠ نهضت . قال : هل تعترف ؟

- عن ماذا ؟ قلت ٠
- يا حيوان : اركض من اول الممر لآخره ٠

اصطفوا جميعاً على الجانبين وأنا اركض والخيزران يهزني عند كل محطة ٠

- اسرع يا كلب ٠

اسرعت ، اهرب من واحدة فتتلقفني اخرى ، وصلت الطرف الآخر ، عُدت ثانية ، لا أعرف كم مرة رحت وجئت ، وقف الأشقر وقال : استلق على ظهرك وارفع رجليك ٠

اصطفوا حولي ثانية ، الخيزرانات تتكسر الواحدة تلو الأخرى ، صَرخت كثيراً من الألم ، لم يفدني ذلك بشيء ، ازدادت الضربات ، تكسرت الخيزرانات على قدميَ فتعض اللحم ، انهض ، أركض ، اصحوا على الماء ينسكب على رجليَ ووجهي وجسدي ، قال : اصمد كما طلبوا منك ، انت تصمد تحت التعذيب ورفاقك يتجولون سكارى في شارع الحمراء ، هل تعترف ؟

- لا ٠

أمسك سيجارته وأطفأها في ظهري وبأخرى من صاحبه في رجليَ ، اشعل قداحته وقربها من جسدي ، تألمت ، حاولت أن استعيد وعيي ، أمرني بالوقوف ، اوقفوني ، قال : هل تعترف يا كلب ؟ لم اعترف فصرت كالكرة ارتطم بأحدهم لأجد نفسي ارتد للآخر ، تورم وجهي ، احمر ، شعرت به ثاخناً ، اللكمات في كل مكان والبساطير تعلو وتهبط، لم أعد أراهم ، وجدت نفسي في بركة من الماء وأنا اجلس على الأرض ، قال: مد يديك ٠ مددتها ، انهالت الضربات ، تكسرت الخيزرانات وأحسست بأصابعي تتكسر معها ، سالت دماؤها ، انزلقت نحو الأرض وحدها ، قال الأشقر :

- هل تعترف أم نأتيك بأبي سمرة ؟

نظرت نحوه ، كنت منهكاً ، اجتر بعض الهواء لابثه ثانية بسرعة ، قلت : ناده ٠

اصطفوا على الجانبين في انتظاره ، فاذا برجل ضخم ، يكاد رأسه يلمس السقف ، مفتول العضلات ، اسمر البشرة ، ودون ان يكلم احداً ، أمسك بخيزرانتين معاً ، قال : ارفع رجليك ٠ لم افعل ، قررت أن أحتمل الألم وأتحداه ، جاءوا بالعصا الغليظة ،ربطوا رجلي بحبالها ورفعوها ، أمسك بي اثنان ورأيت ابو سمرة ينزل من السماء فتنزل يده كالمهدة ، تلقي بحملها على رجليَ وتبتعد ، تعلو وتسقط محدثة دوياً في جسدي ، وأحدهم يسكب الماء باستمرار على وجهي ورجليَ ، وابو سمرة يبتسم ، رايت أسنانه ، ربما كان يبتسم ، تكسرت خيزرانتيه ، استبدلهما والماء يندلق على جسدي ٠ اغمضت عيني ورحت في غيبوبة، صحوت فاذا بي أجد نفسي محاطاً بالأسمر والأشقر وجنديين ، لم أجد أبا سمرة، فرحت ، لم يطلب المحققان عندها مني اعترافاً ، قال: قم إلى غرفتك٠ لم استطع ، أمسك الجنديان بي وعلى باب الزنزانة القيا

بي .

لماذا لم يصدقني هشام ! هل أقسم بأي شيء يريده ، ماذا أفعل ، لم يتركني اتذكر كل العذاب الذي قاسيته ، إنه يضعني في العذاب من جديد ، أكمل : ألم يطلبوا منك التعامل معهم ؟!

- لا ، قالوا : نريد التوقيع على إفادة باعترافك فقط .

- صحيح ولكنهم إن استطاعوا ، لن يتركوك حُراً ، وسجنك يعني أنهم يضغطون عليك أكثر .

. . . .

أمرت الإدارة باغلاق الاشباك ، جلست على الفراش لا أفعل شيئاً ، رأيت هشام يتنقل من بُرش إلى آخر ، يُحادث هذا وينتقل لذاك ، قفز عن جسدي ليصل إلى الجانب الآخر ، ولا أدري أين أدور بعيني ، سمعت همسات ، اجتمع البعض ودارت الهمسات ، مرت الثواني بطيئة ، ركزت سمعي لصوت التلفاز لأنسى ما يحدث حولي ، صحوت على صوت موالٍ ينطلق من زاوية في الغرفة ،خفت ، قلت في نفسي : هذه إشارة لشيء ما سيحدث بعد قليل ، لن استطيع مقاومة كل هؤلاء ، سيأكلون لحمي قطعة إثر أخرى ، هذه الليلة ستكون ليلتي ، ستكون نهايتي ، هذا هو اليوم الأخير الذي سأعيشه ، لو اقتربو مني سأقول لهم : افعلوا بي ما تشاؤون ، لكن ابقوني حياً ، حافظوا على حياتي حتى أرى أمي ، جاء والدي وزارني في دائرة المخابرات وقال : انها على فراش الموت . امهلوني حتى أراها ، أودعها ومن ثم اقتلوني ، وإذا ما تركتموني حيا فلن أخذلكم بعد الآن ، اطلبوا مني ما تشاؤون وأنا سأنفذه ، لو طلبتهم مني ان أغتال الحكومة باكملها سأفعل ، سيعلقوني بعدها بحبل

المشنقة ، ذلك لا يهمني فهو أشرف لي من أن أموت بين ايديكم ، اطلبوا مني ان احمل السلاح وأقاتل النظام ، سأقاتله ، سأدور من جبل إلى جبل ومن وادٍ إلى واد ، سأنام في المغائر ، سأنام مع الأفاعي والضباع، أعرف بأنهم في النهاية سيقتلونني لكنني عندها سأموت كريماً ، سأموت بأية طريقة تقررونها لكن لا تفعلوا ذلك بايديكم ، ليس في غرفتكم ، إن اقترب احدٌ مني لقتلي سأصرخ ، سأدافع عن نفسي، ستأتي الشرطة لتنقذني ، عندها سأمسك بشرطي وأحاول قتله ، سيضربونني هم الآخرون ، عندها سيسجنونني في "القبو" ، هناك سأكون وحدي ولن أخشى احداً ، بعدها سيحاكمونني بتهمة محاولة قتل شرطي ، سأرضى بالتهمة وسأفخر بها ، ستكونون عندها قد نسيتم ما حدث في دائرة المخابرات .

نام معظمهم ، بينما ظل هشام يتحدث مع أحدهم ، أشعل ضوءاً صغيراً قربهما وراحا يناقشان كتاباً ، سمعت بعض الكلمات ، قلت في نفسي : هذه محاولة للتمويه عليّ ، هشام لا يريد أن ينام ، وحين يتأكد بانني فعلت ، سيوقظ الرفاق ويقتلونني ، استلقيت على الفراش محاولاً مقاومة الانهاك الذي أصابني ، أقفلت عينيّ محاولاً اختبار ردة فعل هشام ، لم يحدث شيء ، اقفلتها ثانية ، تقلبت على جانبي ، وفي الصباح وجدت نفسي حياً .

. . . .

مرت الساعات بطيئة وقاتلة ، انتقل ما بين شبك وآخر ومن ساحة إلى أخرى ، رأيت حاتم من بعيد ، التقت عيوننا لحظة ، فاذا به يبعدها ثانية ، راودتني نفسي أن الحق به وارجوه ان لا يكون الحكم

التالي قاسياً ، لم اجرؤ على ذلك ، سمعت مكبرات الصوت تأمرنا بالدخول ، وجدت الرفاق جميعاً هناك ، جاءوا بالغداء ، دعوني لتناوله ، كنت خجلاً ومنهاراً ، لكني كنت جائعاً أيضاً ، تقدمت كما الطفل المؤدب وحاولت أن انهي ذلك بسرعة ، دخلت الحمّام لأغسل يديّ ، حاولت أن اقضي ثوان أخرى هناك بعيداً عن رؤيتهم ، سمعت صراخاً من وراء الستارة يقول : اخرج بسرعة يا حيوان .

خرجت مُسرعاً ، استرقت نظرة نحوه ، فزعت ، كان حاتم هو صاحب الصوت ، كان متأهباً لمعركة والشرر يتطاير من عينيه ، ايقنت انه سيقبض على عنقي ، صاح به هشام ان يهدأ ، جلست دون حراك ، ظللت هكذا في انتظار فتح الأشباك ، كنت أعد الثواني عداً علها تمر ، كانوا يشربون الشاي وجو من الصمت يسود الغرفة، لم أصدق أن الأشباك تفتح ثانية ، خرجت مُسرعاً ورحت أطوف في أركان السجن ، وددت لو أجد مكاناً أجلس فيه ، لم اجد ، لو كنت احمل فلوساً لجلست على أحدى مقاعد المقاهي ، تمنيت أن أشرب شاياً ، فنجان قهوة ، مر الوقت وقدماي لم تعدا تحتملان الانهاك الذي اصيبتا به فرجعت إلى الشبك الأول ، جلست قرب الجامع ، تذكرت مجاهد ، تمنيت أن أتحلى بالصبر وبطهارة الروح ، كل شيء يزول إلا الروح، تمنيت لو قطعت رجلي بدل ما حدث وظلت روحي صافية ، كدت أدخل الجامع لأصلي ، اعتقدت ان الجامع سيصبح نجساً إذا ما دخلته ، كل صلاتي بعد الآن لا تفيد ، لن يغفر الله لي ، لن يمحو ذنوبي ، كانت ثقيلة عليّ وتنتقل لكل مكان أجلس فيه ، لقد كان مجاهدُ يجد من يلجأ إليه كلما شعر بأزمة ، أما أنا فانني خارج هذه الدائرة ، قال بأن رحمة الله واسعة ولم أصدق أن الجريمة التي اقترفتها يسهل نسيانها ،لقد اصبحت محاصراً

من نفسي ، آهٍ لو كنت غير نفسي ، آهٍ لو استبدل عقلي بعقل آخر ، رفعت مستوى نظري فرأيت هشام يخطو مُسرعاً إلى غرف أخرى ، لقد خرج برفقة آخرين ، لقد تعرفت على بعضهم بالأمس ، رأيته يفضح سِري ، لم يعد سِري سِراً ، كدت انهض وأمسك به مقترحاً عليه أن يأتي بكل الناس الطيبين في هذا السجن لأخبرهم بما حدث ، كان يسير مع صالح ، رأيت شفاه صالح تتحرك هي الأخرى ، ماذا لو جاء بالسجناء وجمعهم لإتخلص من هذا الألم الذي أعيشه ، لم أنهض ، حاولت أن أفكر بما يقولونه ، كانا يسيران ويشيران بايديهما ، دخلا الغرفة المجاورة للمقصلة وخرجا ، اقترب هشام مني وطلب مني ان اتبعه ، دخلنا إلى الغرفة وقال : هذا فراشك ، خذه وإذهب للغرفة رقم ...

حملته وحملت ثيابي وذهبت أجرجر هزيمتي ، اغلقت الأشباك فتعرفت على زملائي الجدد: احمد قاتل ابيه ، محمد : شاب صغير قال بأنه كان فدائياً ، وآخر سافر بجواز سفر أخيه لعلاج آلام ظهره نتيجة التعذيب وهو الآن يعمل مقاولاً ، وآخر سجن بسبب تعاطيه الحشيش. إذاً هذه غرفة المهزومين وبعض السجناء المدنيين .

أين أنا الآن ! أين أنا مما يجري حولي ، أريد أن أرى أقاربي ، لقد اصبحوا الآن هم منفذي الوحيد إلى العالم ، لقد نسيتهم طوال سنوات نضالي ، لقد اعتبرتهم عاملاً محبطاً للنضال ، لم أكن وحدي ، رفاقي حدثوني عنهم بنفس الطريقة ، قالوا : ليس من السهل الجمع بين الأهل والنضال ، إذا أردت أن تكون مناضلاً فلتنسى أهلك ، الأهل يريدون ابنهم متعلماً وغنياً وذا مركز اجتماعي هام ، الأهل يريدون أن يزوجوا ابنهم ليصبح عنده أولاد يكونون سنداً لهم ، لكن التعليم رغم أهميته يحرف المناضلين عن بذل كل جهودهم للثورة ، هناك أناس متعلمون

نفيد منهم ولكننا مناضلون سياسيون وفق منهج علمي ، العلم هو كل شيء ، السياسة هي علم أيضاً ، إذا أردت أن تكون متعلماً فتعلم السياسة ، أما البحث عن المال والأولاد فسيستغرق منك كل وقتك . وجدت ما يقوله صحيحاً ، قبل ذلك كنت طالباً مجتهداً في دروسي ، كنت من أوائل الطلاب في المدرسة ، درست في الجامعة ثلاث سنوات فقط ، لا ، بل سنتين ، فالسنة الثالثة ضاعت منذ أن ضعت بالعمل السياسي ، لم احضر الدروس فكانت النتيجة سيئة ، كنت قبلها أغلق الغرفة على نفسي وأدرس ، علاماتي كانت الأعلى ، كنت سعيداً بهذا النوع من الحياة حتى دخل عليّ ذات مرة طلبة فلسطينيون من الغرف المجاورة ، قطعوا علي خلوتي بنفسي وبكتبي ، تلك الخلوة التي اعتدتها منذ طفولتي ، قليلاً ما كنت أخرج للشارع والعب في الحارات ، الدراسة كانت كل حياتي ، كنت أحلم أن اصل إلى المدرسة دون أن ألاقي أحداً في الطريق ، حلمت ان اطير من البيت للمدرسة دون أن أمر في الشارع ، لئلا أرى الناس ويروني . فماذا يريد هؤلاء مني ، جاءوا ليكتشفوا عالمي ، تحدثنا قليلاً عن الجامعة والعلم ، شربنا شاياً ، ودون تخطيط مسبق ربما ، صرنا نتحدث في السياسة ، تحدثوا في اشياء لا أعرفها ، كنت احفظ فقط ما ورد في كتب المدرسة دون أن اربط بينها كما فعلوا هم ، لم اتوقع ان اسمع عن نظام الوادي مثلاً مثلما سمعت، حدثتهم فقط عن أخطاء دون إدانة ، لم أتوقع أن أسمع ما قالوه عن حرب سنة ثلاث وسبعين ، قالوا بانها حرب تحريك للارتباط بالامبريالية ، قالوا أشياء كثيرة عن كل الانظمة العربية وكل ما يحدث في العالم ، لقد كانوا يربطون بين كل صغيرة وكبيرة بشكل عجيب ، وكان إذا ابتدأ أحدهم الكلام لا يتوقف وكأن هناك مخزون في

اعماقه يغرف منه ، اكتشفت ان هناك عالماً مهماً لا أعرفه ، شعرت بصغري أمامهم ، وددت أن يخرجوا بسرعة ، لم يَعد تدخلي في النقاش يضيف شيئاً ، لقد عرفت نفسي طيلة حياتي متفوقاً إلى أن اكتشفت بانني لا أساوي شيئاً ، طال الحديث وانقضى الليل وأنا أنكمش على نفسي ، استسخفت كل السنوات التي قضيتها في الدراسة ، استسخفت كتبي ، شعرت كأنني لم أعش مطلقاً ، قررت أن ادخل هذا العالم ، صِرت اشتري كتباً واستعير أخرى ، أقرأها وأناقش فيها ، لم أعد أذهب للمحاضرات ، صار يحلو لي أن أجلس في مطعم الجامعة واتحدث ، اكتشفت انني اتعلم السياسة بسرعة ، شعرت انني استطيع ان اساهم بشكل جيد في الحركة الوطنية، قررت الانضمام لتنظيم ما ، قرأت كل البرامج السياسية لمختلف التيارات واخيرا اخترت الحزب ، صِرت احضر الاجتماعات الدورية سِرياً ، كنت عضواً نشيطاً وفاعلاً ، كنا نتابع كل الاخبار ، سمعت ان نظام الوادي قام بحملة اعتقال واسعة ، ووصلتني رسالة خاصة من بيروت تأمرني بالذهاب هناك ، ترددت قليلاً، تذكرت الدراسة التي بدأت تضيع ، فكان رد أحد الرفاق : القرار يعني قرار ، الدراسة ليست اهم من الثورة - قلت للرفيق : وماذا سأقول لأهلي هناك وفي الوطن ؟ أجاب : اخبرهم إذا اقتضى الأمر بأن الجامعة هنا انتدبتك لمدة سنة لتدرس في الجامعة هناك كجزء من التبادل الثقافي بين الجامعات . كنت قد سألته مرة عن امه ، وإن كان يحبها مثلي ، قال : لا تذكرني بأمي ، هي تعرف أنني اتعلم في امريكا ، اراسلها عن طريق صديق ، اخبرتني قبل فترة بأنها تود زيارتي فأنذرتها إن حاولت المجيء فسأترك الجامعة ، انني أحاول أن أنساها ، انني احاول أن أنسى الأهل ، الأهل والنضال في حالتنا لا يلتقيان ، انني أيضاً لا أفكر في

الزواج رغم انني اقترب من الأربعين ، الزواج يعتمد على الذي سترتبط به ، وفي حالتي حيث اعيش مشرداً بجواز سفر مزوّر ، ليس من السهل الارتباط بزوجة ، كل الرفيقات اللواتي أعرفهن متزوجات ولا أريد أن الهو بزواج ومن ثم باطفال ، لا أريد شيئاً يملأ علي جو البيت والحياة سوى النضال ، هكذا خلقت وهكذا سأظل .

أنا الآن لست مناضلاً ، يجب أن أرسل في طلب أهلي ليزورونني ، لقد انهرت بسببهم أيضاً ، لم اكن الوحيد الذي فعل ذلك ، فبعد اعتقال هشام ، اختفى احد الرفاق في بيتي ، تعرفت عليه ، كنت في البداية أراه صلباً ، وضعت بيتي تحت تصرفه ، قلت له : ليس لك عمل الآن ، عملك ان تحافظ على نفسك ، لا تخرج من البيت ، إنهم يفتشون عنك في كل مكان ، هذا بيتي ، هذا بيتك ، سأحضر لك الجرائد والمجلات وهناك كتب كثيرة تستطيع قراءتها ، لا تفتح الباب لأي طارق ما دمت انا خارج البيت . كنت اجلس معه واحادثه ونحاول تقييم الضربة التي نتعرض لها ، مرت الأيام فصرت أراه محمر الوجه والأذنين ، مضطرباً ، لم يعد يستطيع قراءة أي كتاب ، سألته عن السبب فقال : نشروا في الجريدة بأن أمي في المشفى ، من المؤكد انهم ينتظرونني هناك . سألته : وهل ستذهب لتسلم نفسك قال : لا ، لن اذهب . حاولت أن أصدقه ، صِرت لا أتغيب عن البيت طويلاً ، اجالسه واناقشه ، احاول اعطاءه دفعة إلى الأمام ، ولكن حين كان يتكلم ، كان يقسم بأنه لن يذهب ، عُدت في أحد الأيام فوجدت البيت فارغاً ، ناديته فلم يجب ، فتشت عنه في الغرف والحمّام فلم أجده ، وجدت أخيراً ورقة منه على الطاولة قال فيها : لم أعد احتمل ، اكملوا النضال وحدكم، لن أبوح بسركم ، لن اعترف عنكم ، اتمنى لكم التوفيق . قتلته أمه كما قتلتني ، تمنيت لو

لم اكن املك اماً ، آهٍ ما أجمل أن يعود الواحد منا طفلاً في احضان أمه، آهٍ ما أجمل الإنسان حين يكون بين أهله ، لماذا يكون النضال شيئاً والأهل يكونون شيئاً آخر ؟! هل صحيح ما يقولونه؟! هل يجب أن يكون النضال هكذا ؟! لماذا قالوا في كتبهم بأن الناس هم البحر الذي يسبح فيه المناضل ؟! وإذا كان كذلك لماذا يجب أن نترك الأهل ونبحث عن جمهور آخر ؟! وهل الأهل ليسوا بجمهور ؟!

جاء يوم زيارة دون أن اسمع اسمي ينادونه ، ارسلت عنوان خالي مع احد الزائرين ، مر يومان بعدها ، سمعت اسمي ينادونه على شبك الزيارة ، رحت اركض ، فوجدت أبي ، سلمت عليه بحرارة ، اعطاني طعاماً كان قد احضره ، سألته : كيف أمي ؟!

- ستأتي بعد قليل .
- أمي ! وهل هي بصحة جيدة ؟ هل هي هنا ؟
- نعم ، انها هنا وصحتها لا بأس بها .
- لكنك ابلغتني انها على وشك الموت ! صحت .
- كنت أود أن ننال شفقتهم .

أصابني اليأس ، أنا الذي صدقته ، لا يمكن ان يكون قد صدقه المحققون ، ليس لديهم شفقة أصلاً ، لقد أودعوني السجن ولم يشفقوا علي ولا على والدي ووالدتي ، صحت به : لماذا كذبت علي يا والدي ، إنني اموت ، لقد قتلتني !

- لم اكذب عليك يا ابني ، بل كذبت عليهم .
- لأول مرة رأيت دموعك يا والدي ، لقد كنت كبيراً في نظري لكنك بكيت أمامهم .
- ماذا أفعل ! هذه حكومة قوية ولا نستطيع مجابهتها ، لقد كانوا

يستخدمون كل الوسائل لقمعنا ، لم نكن نستطيع ان نستمع لاذاعة صوت العرب إلا سِراً ، كل مَن كانوا يمسكون به يشبعونه ضرباً وتعذيباً وسجناً ، فما بالك بعضو حزبي ، لقد كانوا يتهمون كل من يستطيع ان يتكلم بأنه حزبي ، كل ما فعلته هو انني حاولت انقاذك من التعذيب الذي مارسوه ضدك ؟ هؤلاء لا يرحمون ، ألم يُقتل ابن عمك ! ألم ينتصروا على كل التنظيمات في النهاية ! الكف لا تلاطم المخرز يا ابني .

- سمعت هذه الجملة منهم ، اما ان اسمعها منك انت !

- هذه هي الحقيقة ، صحيح أنك كبرت ، لكنني اكثر دراية بمصلحتك ، يجب ان تعود عن هذا الطريق .

- بل يجب أن أعود الى هذه الطريق ، إنني اتعذب ، أنت الذي هزمتني ، أمي هي الأخرى هزمتني ، تمنيت لو كنتم قد مِتم منذ زمن بعيد حتى لا افكر فيكم ، ما فائدة حياتي وأنا أعيش هذا الوضع ؟! ماذا؟ قل لي يا والدي .

- اسمع يا ولد ، انت ما زلت شاباً ، نحن سنموت قريباً بالفعل ، لم يتبق من عمرنا إلا القليل ، نريد أن تبني مستقبلك خارج السجن وليس داخله .

كنت وأنا في الزنزانة اتمنى ان لا يعرف احد من الاقارب عن اعتقالي ، تمنيت ان لا تعرف أمي ، كانت دائماً تقول : انتم رأس مالي ، لو حدث لأحدكم مكروه لمت مباشرة ، لقد تعبت وصبرت من اجلكم ، لا توقعوا انفسكم في التهلكة ، لا استطيع تحمل ان تنغرس في جلودكم شوكة ، اهتموا بدروسكم ، أنا مسرورة منك يا ماجد وأنت تدرس ، إياك والعمل السياسي ، لا تدع أحداً يلعب في أفكارك ، أنا واثقة من ذلك ،

فلسطين ليست لنا وحدنا ، كاد أبوك ان يقتل سنة ست وثلاثين، ليحافظ كل منكم علىنفسه ، مَن يموت يموت ، ماذا فعلوا الشهداء ! خسروا انفسهم وخسرهم الشعب ، المعركة اكبر منا ، اكبر من كل الذين قتلوا، انها بحاجة الى كل العرب ، كل العرب نائمون فماذا نفعل ! حمدت الله كثيراً لانكم تعيشون في الخارج ، خشيت ان يأتوا ويعتقلوكم كما فعلوا مع الآخرين ، اطلب من الله ان يساعد امهاتهم ، والله إني لأعجب حين أرى بعض الامهات يضحكن ويرحن ويجئن بينما اولادهن في السجن ، كيف يحدث ذلك !

أجهشت بالبكاء وأنا اذكر ما قالته ، نسيت العذاب الذي مارسوه ضدي وصرت غير قادر عن ابعاد طيفها ، غمرت وجهي في الوسادة وبكيت ، تألمت من عذاب أمي لو عرفت ، قلت في نفسي : الطريق واضح، عشر سنوات في السجن ثمن ما قمت به ، ستعرف انني في السجن وتزورني هناك ، ستبكي ، لن ابكي امامها ، ساشرح لها طبيعة السلطة ، سأحاول اقناعها أن تفرح لإنها اكتشفت ان ابنها صار مناضلاً ، ستقتنع ، ستقسم بحياتي ، ستفخر بي وسافخر بامي امام الرفاق ، أمي الطيبة ستضحك وتروح وتجيء كما امهات السجناء ، لا تتمنى اي ام ان يسجن ابنها ، لكن إذا ما حدث فانها تحبه اكثر ، أمي الحنونة ، الإنسانة ، ما اعظم الإنسان ، الإنسان المعذب الذي يقاوم الظلم باليد وباللسان وبالقلب ، انني اقاومه بيدي وبلساني وبقلبي بينما تقاومه امي بقلبها ، هذه هي احوال الحياة .

يومها فتح الحارس باب الزنزانة حاملاً كيس ثياب وقال : هذه ثيابك ، ارتدها وتعال .

لم اصدق ان خالي عرف عني ، اصبت بالارتباك ، فرحت ايضاً لإنني

ساراه وانا لا استطيع معرفة اخبار والديّ بينما انا هنا ، لبستها ، ولحقت به ، اصطحبني الى الطابق الثالث ، وقف عند باب احدى المكاتب ، القى التحية، وامرني بالدخول ، فوجئت ، لم اصدق ما اراه ، اندفعت دون ان ادري نحو والدي وخالي ورحت اقبلهما والدموع تنسكب من عيوننا ، امرني المحقق بالجلوس ، قال والدي ، يا جماعة ، هذا ابني ، نحن مخلصون للوادي ونظامه ، افرجوا عن ابني لوسمحتم . تطلعت حولي فوجدت ثلاثة محققين يجلسون على مكاتبهم ، جفت دموعي ، التقت عيوننا ، قال احدهم : لقد احضرنا لك والدك حتى لا تظن انك تعيش في سجن .

- لم اطلب منك ذلك .

- هل منعناك يوماً من العمل في الوادي ؟ موجهاً السؤال لخالي .

- لا والله .

- هل اقتحمنا في يوم ما بيتك ؟

- لا

- لماذا؟

- انا اعمل من اجل ان اعيش .

- ولماذا ربيتم هذا الولد العاق بهذا الشكل ؟

- هو الذي اختار ذلك ، لا علم لنا بما كان يفعله .

- الا يستحق السجن !

- من يخالف القانون يستحق السجن ، من الممكن ان يكون آخرون اوقعوا به .

- هل تعرفون كم سنة سيقضيها في السجن ؟

- لا .

- عشر سنوات فقط .

- واحد مثل هذا يجوز فيه الاعدام لا السجن . قال محقق آخر .

تطلعت نحوه ، لم تعجبه نظراتي ، أكمل : من يترك والديه المسنين ويلعب بالنار ، النار تطاله .

- من هذه الناحية صحيح . قال خالي .

- لكنكم ستفرجون عنه ، نحن بحاجة له ، أمه الآن في المشفى ، إنها مريضة ويجب ان يراها قبل أن تموت .

تموت ! تموت ؟! ، التفت نحو والدي ، أمسكت يده ، سألته عن أمي فقال : إنها مريضة ، يجب ان تخرج لترى أمك .

ضجت بي الغرفة ، لم أعد احتمل ، نُخت ، انهمرت دموعي ، وقفت صارخاً في وجه والدي : هل صحيح ما تقوله ؟

- نعم ، يجب ان تخرج .

صحت في المحققين : أرأيتم ماذا تفعلون بالانسان ؟! انكم تقتلون امي ، لقد اعتقلتموني وتريدون الآن ان تلقوا بي عشر سنوات في السجن .

وقف هو الآخر وقال : انت الذي ستقتل امك ، افعالك هي التي ستقتلها ، امامك خيار واحد للخروج : الاعتراف ، انتهت المقابلة ، انزل للزنزانة .

ودعت والدي وخالي وهما يقولان : افعل ما يرونه مناسباً .

نزلت الى الزنزانة ، دخلت ابكي ، صحت بأعلى صوتي ، صرخ في الحارس أن أصمت ، صَمت بالفعل ورحت افكر بما يجب ان افعله الى ان قررت الاعتراف .

رأيت امي تأتي من بعيد ، لم استطع مشاهدة عينيها الباكيتين ،

حبست دموعاً كادت تقفز من عينيَّ أمسكت كلماتي حتى لا تكون مفجراً لدموعي ، أمسكت امي يديَّ وراحت تقبلها وتبكي وتصيح ، امسكت برأسي وراحت تداعب شعري وتشد رأسي نحوها محاولة تقبيلي ، اصطدم رأسي بالقضبان الحديدية فراحت تسأل وتقول : ماذا فعلوا بكَ ؟ هل ما زلت حياً ؟! دعني أراك ، دعني امسك يديك، ما هذه الخدوش على رقبتك ؟ هل هذه آثار التعذيب ؟! وراحت تبكي ، فاذا بصالح يأتي ، اقترب نحو الشبك ، أمسك يدها وقال : مهلاً يا حاجة ، انك تقتلين ابنك ، السجن مأوى الرجال ، ابنك سيخرج في النهاية ، لقد قرأت ملفه ، لن يحاكموه ، إنه موقوف ، سيفرجون عنه في اقرب فرصة ، كلها أيام وسيأكل من طعامك وينام في حضنك إن اردتِ ، لا نريد فضائح ،يجب ان تساعديه حتى يستطيع تحمل الأيام السوداء ، يجب ان تساعديه حتى يصمد ، ما زال الطريق امامه طويلاً .

- لكنه ابني يا ابني !

- وهي تعتقدين اننا بدون امهات ! لي اطفال ايضاً وزوجة ، كل السجناء لهم امهات ، ابنك مثل كل الناس ، ابنك لم يكن سارقاً لا سمح الله ، لقد كان يعمل للوطن ، كان يعمل من اجلك ومن اجله ومن اجل كل الناس .

مسحت دموعها ، توقفت عن البكاء ، نظرت نحوي ثانية ، امسكت يديَّ وقالت : ادعو ربي ان يُفرج عن كل السجناء من اجلك ، اسمع يا إبني : تنبه لنفسك ، عامل زملاءك بصورة حسنة ، ادعو الله ان يحبك كل الناس .

- انت يا امي التي جعلتني انتظم في العمل السياسي وانت التي اخرجتيني منه .

- الم احذرك من الانزلاق نحوه ؟!

- نعم ، لكنك كنت تطالبينني ان احب كل الناس .

- ما زلت يا ابني .

- ذلك يعني ان ادافع عن الناس ، ابعد الظلم عنهم واساعد المحتاجين ، لقد استجبت لطلبك .

- هناك طرق يا ابني لمحبة الناس ، لم اطلب منك اختيار هذا الطريق .

- لكنه الطريق الذي وجدت دعواتك تتلائم معه

- ألم يكن اصحابك الذين ائتمنتهم هم الذين دلوا عليك ؟!

نعم ، اصحابي دلو عليَّ ، لا .. لا ، بل اعتقدت انهم اصحابي ، لا .. لا ، بل اعتقدنا انه صاحبنا ، عُدت إلى الغرفة وانغمست في التعرف على الذين في الغرفة حتى احبهم ، ليس لديَّ بديل آخر ، فكرت فأنا محاصر، لم يعد سجن الحكومة يخيفني ، إنَّ سجن السجن أشد بطشاً ، فها هم الحشاشون واللصوص والقتلة يتمشون في الساحات بينما لا استطيع فعل ذلك ، الشتاء قارس والامطار تتساقط والسجناء يملأون الساحات ، كلما قررت ان اتمشى اقف عند الباب وأرى شخصاً أعرفه ، أعود ثانية إلى الغرفة ، مضت الساعات دون ان اقدر على الخروج، حتى الذهاب إلى الفورة كان يمر بصعوبة ، كنت احمل الابريق في الصباح حين تفتح الأشباك ، استغل فرصة ان تكون الساحات شبه خالية ، أركض دون ان التفت نحو احد ، قابلت حاتم عند باب غرفة هشام مرة ، كان يحمل كيس نفايات ويخرج به ، قلت له : صباح الخير - لم يعرني اهتماماً ، فعلت ذلك عدة مرات حتى يسمعني دون فائدة ، صِرت لا أرغب في الذهاب الى الفورة مرة اخرى ، كثيراً ما أخذت إذناً باستعمال مرحاض الغرفة في الليل حتى لا أخرج في النهار،وعند توزيع المهام لم استطع

إلا تنفيذ قرارات زملائي ، كان عليّ أن احمل كيس النفايات يوماً في الأسبوع وأتسلم الفطور والخضار والخبز ايضاً ، قبلت سجن الغرفة مقابل عدم مقابلة احد الرفاق ، عند شبك الزيارة ايضاً كان السجن يعتصرني ، حين أجد احداً كنت قد قابلته من قبل ، أدير وجهي ، لكني وجدتهم اكثر إنسانية مني إذ كانوا يسلمون على أقاربي ويتعرفون بهم ويخبرونهم عن احوال السجن ، كنت افتعل ابتسامة لما يقولون رغم انني كنت اعيش في عالم لا أعيشه ، كثيراً ما طلبت من اقاربي ان يذهبوا بحجة انني لا أريد منهم تحمل المشقة والوقوف طويلاً ، اعود بعدها للغرفة ، تمنيت لو كنت مجنوناً ، اعيش بينهم واخرج الى الساحات حين تغلق الأشباك وتفتح لهم ، يكونون أحياناً عراة دون ان يدينهم احد ، فهم في نظر السجناء مجانيناً ، لا يهمهم إن كانوا قتلة قبل دخولهم السجن ، إنهم يعيشون حياتهم الخاصة دون ان يتدخل بهم السجناء ، عشت حالة شبه جنونية ، قدمٌ في الجنة وقدم في النار ، كنت تائهاً في بحر لم احدد اعماقه من قبل ، الغوص بالنسبة لي صعب كما الصعود لسطح الماء ، الوصول الى شاطىء البحر ليس قراري وحدي، لا أريد الغرق ولا استطيع التنفس تحت الماء ، تمنيت لو كنت سمكة، تمنيت ان اكون كلب بحر أو أي شيء آخر ، همني فقط أن لا أعيش حياة مرة كالتي اعيشها .

مع مرور الأيام شعرت بميلٍ الى محمد ، كان هو الآخر ينزوي في الغرفة طيلة النهار ، كنت اسمعه يردد اغاني الثورة ويبكي ، كان شاباً مفتول العضلات ، ابيض الوجه وجميل ، حدثني عن بطولاته : قمت باكثر من عملية ضد الكتائب في بيروت الشرقية، دخلت هناك اكثر من مرة ، لكنني كنت مهتماً بقتل الكلاب لإنها تعمل على نشر خبر دخولنا

الحدود الشرقية ، لو ذهبت الى لبنان وسالت عني سيخبرونك عن بطولاتي ، تعلمت استخدام المدفع وصرت اتقنه ، لقد كدت اموت لانني لم انتبه في البداية لطريقة عمله ، إذهب واسأل عني .

- وما تهمتك ؟

- فار من الخدمة العسكرية .

صدقته إلى أن سمعت صالح يقول له : إذا أردت ان تخبر الناس شيئاً فلا تكذب ، قل لهم انك حاولت استغلال المقاومة لتحصل على منحة تعليمية ، وحين لم تجدها عدت .

- ليس صحيحاً ، فأنا جئت لزيارة اهلي . أجاب .

- اخرس يا ولد . صاح به .

انكمش محمد حول نفسه وراح يبكي ، ألقى بنفسه على الفراش ، وعاد لا يغادر الغرفة إلا قليلاً ، قلتُ لنفسي : أنا افضل من محمد ، فلم احاول استغلال الحزب لاغراض شخصية ، إن الرفاق لا يفهمون ذلك ، سيفهمونه في يوم ما .

تقربي من محمد كان يحسسني بالوضع الصعب الذي عشته ، لكني وجدت في احمد اكثر إنسانية ونضجاً ، كان يهوى الغناء والعزف على اوتار العود ، كان يغني والحزن يتناثر من عينيه ، تقفز منها الدموع احياناً ، لم اصدق انه قاتل ، خفته في البداية لكني وجدته انساناً طيباً وصادقاً ، تجرأت مرة وسألته : كيف قتلت أباك ؟

أشعل سيجارة واغمض عينيه قليلاً ثم قال : رجعت من العمل مرة فوجدت زوجتي تبكي ، سألتها عن السبب قالت : أبوك .

- وماذا فعل ؟ هل ضربكِ ؟ سألت .

- أبوك فعلها .

نظرت نحو وسطها وراحت تبكي بعنف ، اعتقدت في البداية انها تكذب ، اعتقدت انها تود افتعال خلاف لنسكن وحدنا ، امسكتها من شعرها وصَرخت فيها : هل تكذبين عليّ ؟ جاءت امي مسرعة ترجوني ان اسامحه . اسامحه ؟! التفت نحو الصالة فوجدت الوالد مرتدياً ثيابه ويهم بالخروج ، لم ادر كيف فعلت ذلك ، انطلقت كالسهم نحو البارودة المعلقة على الحائط ، امسكت بها وأرديته قتيلاً ، لقد قتلته ، قتلته يا ماجد ، هاتان اليدان فعلتا ذلك ، قتلت والدي ، دافعت عن شرفي فقتلته، أنا الذي انهى حياته ، لو لم افعل ذلك لانهيت حياتي ، لم استطع ان اعيش ذليلاً ، الذل ما زال يطاردني ، أما هؤلاء فسيقتلونني ، لقد حكم عليّ بالاعدام وها أنا انتظر تنفيذه ، هناك قتلة يحكمونهم مؤبداً لمجرد أنهم عقدوا صلحاً مع اهل القاتل ، اعمامي لم يغفروا لي فعلتي ، لقد قتلت اخاهم ويهددوني بالقتل إن خرجت ، إن بقيت في السجن سأموت وان خرجت منه سأموت ، لقد عادت زوجتي واطفالي عند اهلها ، إنهم يشحذون الآن .

شعرت بصدقه وصِرنا نخرج معاً أحياناً ، كنت استمتع بصوته وهو يغني ، علمني لعب الزهر ، علمني "المحبوسة" و"الواحد وثلاثون" وعلمته الشطرنج ، وإذا شعرنا بالملل امسك بالعود وراح يداعب اوتاره، كنت اغني له اغانٍ خليجية وهو يستمتع بها فتزيده طرباً ، صِرنا نبحث عن ا لاغاني الحزينة ، اعجبنا بأغاني سعد الحلي ، كانت اغانٍ باكية تخرج من بين دجلة والفرات وكثيراً ما رددنا :

مو قالت الشمات   هاي اللي ردته
دادا حسن هاي اللي ردته
والقلب عندك ظيف   عفته وتلفته

دادا حسن عفته وتلفته
لا أم تحن بياه   لا خالة وياي
دادا حسن لا خالة وياي
ومتى اكون وياه   قتلني هواي
دادا حسن قتلني هواي

كنا نرددها عدة مرات ، يلتف البعض حولنا ، يأتون من الساحة فينطلق لاغانٍ اخرى .

قبل اغلاق الاشباك ظهراً ، شعرت بحاجتي الى الذهاب للفورة ، حملت الابريق ووقفت خلف الباب فاذا بكثيرين اعرفهم يتمشون في الساحة ، رجعت الى الداخل ، تمددت على الفراش محاولاً ابتلاع الألم فلم استطع ، فقررت ان اذهب بغضّ النظر عن من اجده في الساحة ، انتظرت حتى ادار هشام ظهره وسرت بجانب الحائط مسرعاً ، في الطريق وجدت عدداً من الرفاق يلتفون حول شخص اعرفه ، لكنه يضع عباءة على كتفيه ، التقت عينانا لحظة قبل أن اتجاوزه ، هززت رأسي محاولاً تذكره، التفت الى الوراء ، ووجدت نفسي أصرخ : همام . التفت نحوي الذين معه لكنه لم يلتفت ، سار وكأنه لا يسمعني ، ، انزلق الأبريق من يدي وأنا اصرخ : همّام ، همّام . لم يسمعني احد ووجدت بنطالي مبللاً بالماء ، ظللت واقفاً فاذا بصوت يقول : كلٌ الى غرفته ، اغلقوا الاشباك . حملت الابريق فارغاً وتلفت نحو الفورة ، سمعت المأمور يصرخ ان يذهب كل الى غرفته ، رجوته ان ادخل ، قال : ادخل ؛ سأمهلك دقيقة واحدة . لم يتوقف عن الصراخ في السجناء بالخروج وبالتهديد باغلاقها ، انهيت ذلك بسرعة ، وركضت نحو الغرفة ، لم

التفت يميناً أو يساراً ، لم ادرِ كيف وصلت ، ايقنت ذلك حين القيت بجسدي على الفراش ورحت ابكي بأعلى صوتي ، اقترب محمد مني وقال : لماذا تبكي ؟

التفت نحوه وقلت : لنفس السبب الذي كنت تبكي من اجله ٠

- لا تتذكر هذه الفترة فقط ، تذكر ما فعلته قبلها ، إنني احاول ان اعيش ذلك الجو الذي كنت اعيشه قبل ان تطأ قدماي هذه البقعة من الأرض ٠

- لقد فعلت الكثير من اجلهم ، لكنهم الآن لا يذكرونه ، كل ما فعلته اصبح جزءاً من تاريخهم وكأن ليس لي علاقة به ، لقد اوجدت لهم منظمة حزبية في الخليج ، لقد تركت فلوس الخليج وأبواب العلم، جاءتني رسالة منهم تقول بأنهم بحاجة إلي هنا ، ورغم الرهبة التي عشتها بناء على ظروف القمع التي سمعت عنها إلا انني قررت ان امتثل لقرارهم ، من الممكن ان اكون قد قدمت لهم الشيء القليل قبل اعتقالهم ، لكن عمل المنظمة كله حملته على ظهري بعدها ، اجرت لهم خمسة بيوت نتنقل كل فترة من بيت إلى آخر ، حافظت على اختفائهم، وطأت قدماي كل زقاق في الوادي ، دبرت اتصالاً مع الخارج حين لم يستطع احد ذلك ، قضيت كل نهاري في الشوارع ولم اكن اعرف اين سأبيت تلك الليلة ، لملمت الأوراق من جديد ، كتبت الكثير من المقالات والدراسات ، تغلبت على مطاردات رجال المخابرات ، قمت بكل ما هو مطلوب مني والقوا بي في النهاية جيفة كما ترى ٠

بعد فتح الأشباك جاء هشام وقال : واجبك ان تُسلّم على همام ٠

- لقد ناديته ولم يجبني ٠ قلت

- لهذا السبب جئت ، يجب ان تذهب وتسلم عليه ٠

- وهل سيمد يده لي ؟

- سيفعل ٠

لم اكن متأكداً مما قاله هشام رغم كل الأيام والليالي الطويلة التي عملنا فيها معاً ، فهمام لا يبتسم ، السياسة هي كل حياته ، حدثني عن الجامعة التي درس فيها بضع سنوات ، لم يكن يعرف اساتذته وقاعات محاضراته ، قضى السنوات التي ظل فيها طالباً في مقصف الجامعة وساحاتها ، لم يحضر محاضرة واحدة ، اخيراً غادرها للتفرغ للنضال ، لم يبتسم طيلة المدة التي عرفته فيها ، كنت اغني في احد الايام ، صفق بيديه قليلاً دون ان يبتسم ثم انشغل بشيء آخر ، السياسة هي عالمه الوحيد ، إنها كل شيء حتى حين يحزن ، بكى مرة ، لم يبك امامي، ذهبت اليه في جبل النبع احمل له اغراضاً ، طلب مني ان اجلس ، قلت : يجب ان اعود الى بيتي ، لا تنسى ان زوجتك تجلس وحدها منذ الصباح ٠ قال : اجلس ، لا تنسى انني اعيش وحيداً في هذه الزريبة ، لا اكلم انساناً ، اريد ان اتكلم مع انسان ، مع اي انسان ٠ جلست ، سألته : ما أخبارك ؟ قال بهدوء وبمودة : انت انسان طيب وأريد التحدث إليك ، كنت في العادة ككل يوم أجلس لأقرأ واكتب ، أما اليوم فلم استطع ، لقد بكيت ٠ والتفت نحوي ، نظرت نحوه أنا الآخر ، دققت في عيونه علني اجد بقايا دموع لاصدقه ، قال : هل قلت شيئاً غريباً ! لقد بكيت ٠

- ما السبب ؟

- تذكرت هشام وباقي الرفاق الذين كنا نعيش معاً ، النضال له رونق بوجود الرفاق جميعاً حولك ، لقد اعتقلوهم والقوا بهم في السجن وها انا الآن أعيش وحدي بين الاوراق والكتب ، لماذا تنظر إليّ هكذا كأنك لا تصدق ! أنا إنسان فقد جزءاً مهماً من علاقاته ، ألا يدفعني هذا الوضع

للبكاء !

حزنت وأنا اسمع كلماته ، رأيته إنساناً من داخله ، رأيته يحاول فتح أبواب كانت مغلقة أمامي ، لم أفكر يوماً بمشاعره ولا اعتقد أنه فعل معي ذلك ، لقد كنت أفكر فقط بالمهام الحزبية ، لقد حاول اغلاق أي منفذ ادلي له بمشاعري ، لقد منعني من الرجوع الى ارض الوطن بحجة أنه لا يعرف شيئاً في الوادي ولا يستطيع التجول فيه ، وها هو يفتحها من جانب واحد ، فكرت في ما قاله ولم استطع سوى ان استمع إليه ، احببت ان اراه كانسان ، احببت ان ارى الوجه الآخر له وأن يرى هو الوجه الآخر لي ، لا أن يراني كأداة لتنفيذ المهام ، ولا أن اراه فقط صانع القرار ، هذه المشاعر لم أقرأ عنها في النظام الداخلي ، ليس لها مكان وكأنها غير موجودة أصلاً ، وكأن المناضل يجب ان ينسى ذاته الواسعة إلا من خلال المتحزبين ، إذا انغمسنا بالمهام النضالية كنا لا نرى سوى القوى الوطنية بعناصرها وبالنظام من الجانب الآخر ، وددت ورجال المخابرات يمرون بي عبر طريق الجبل الشمالي وعندما وصلوا بنا المخيم ، وددت أن يخرج سكانه ويوقفوا الزحف ، لم يخرجوا ، فهم لا يعرفونني ، كنت كشخص لا انفتح على احدهم إلا بعد علاقة طويلة ، لقد خططنا لإن نبني حزباً حديدياً ، ومناضلين صلاب ، عملنا بشكل سري جداً، أبناء المخيم يعرفون الحزب من خلال البيانات والمعتقلين، أما خارج السجن فلا يعرفون أحداً ، سمعت مرة أحد ابناء المخيمات يقول : أمطرت الليلة بياناً . ابتسمت في داخلي ولم اجرؤ على سؤاله عن اصحاب البيان او عن محتواه ، كنت اشعر وكأنني سأكشف نفسي له، خفت وحولت النقاش لموضوع آخر وكأنني لا أعرف شيئاً ، اعرف ان البيانات كانت توزع بالالاف ، إلا أننا لم نجد أداة اتصال بهم ، كانت

الاداة الوحيدة هي البيانات والتقاط ما يمكن التقاطه بعلاقة ثنائية مدروسة جيداً وبقرار جماعي . تعرف رفيق مرة بشخص عادي جداً ، لا يستطيع فهم كل ما كنا نقوله ولكنه شخص ذو موهبة بالمراقبة ، يصلح ان يصبح يوماً في جهاز امن عام للحركة الوطنية ، لم نقبله في الحزب ، ابقينا عليه صديقاً حتى تسمح ظروف الحزب بذلك في وقت لا نستطيع تحديده .

لم اصدق انني اسمع همّام يقول ما قاله ، احببته ، وددت ان احضنه واقبله ، خشيت ان افعل ذلك ، لم استطع القفز عن الحاجز الذي بيني وبينه رغم المدة الطويلة التي عرفته فيها ، اتبع كلامه : ما هي أخبار زوجتي .

- جيدة ، نجلس ونتحدث في القصص والشعر .
- ألا تسألك عني ؟
- انكما تراسلان بعضكما ولا أعرف ولا أجرؤ على معرفة ماهية العلاقة بينكما .
- اليوم سأزورها .

ارتبكت وقلت : ولكنك اكثر معرفة مني بأننا يجب ان نحافظ على أمننا بافضل صورة ممكنة ، لقد أجرنا اكثر من بيت حتى نمنع اعتقالنا جميعاً مرة واحدة وحتى لا يعرف احدنا اين يكون بيت الآخر .

- صحيح ، لكنني سأراها اليوم .
- لا ، يجب ان تظل في هذا البيت حتى نجد فرصة ملائمة .

نهض من مكانه ، القى بالكتب وبالدفاتر جانباً وقال : لقد مللت الوحدة ، لا استطيع العيش وحدي ، اريد ان ارى زوجتي .

- يبدو ان رغباتك الجنسية تمنعك من اتخاذ القرار المناسب .

- اعتقد كما يحلو لك ، ومن قال ان الحزب يقف ضد هذه العلاقة ، انني احبها ويجب ان أراها الآن وليعتقلوننا هذه الليلة إذا أرادوا ، ماذا لو جاء رجال المخابرات واعتقلوك واعتقلوها ، كيف سأعرف ذلك ! إما أن نظل احراراً معاً أو أن نعتقل معاً .

ذهب معي بعد خطوات تضمن عدم ملاحقة رجال المخابرات لنا ، مكث يومين وقرر أن يرجع وحده ، قال : لا اعرف كيف يستطيع الواحد منا النضال والزواج معاً ، إذا بقيت هنا سأظل في حضنها ، كفى ، كفاني، أريد أن أشعر بأنني اعمل .

وجدت ان بقائه في بيتي مع زوجته سيقلل من تنقلي من حي إلى حي ومن جبل إلى جبل ، حاولت إقناعه أن يبقى فقال : يجب أن أذهب وأعمل للحزب .

- لكن الرفاق في الخارج طالبونا بعدم القيام الآن بمهام .

- لا أستطيع أن اظل بدون عمل ، عندما أشعر بالشوق سأجيء .

حاولت أن أرى هذا الجانب من شخصه ، وتمنيت أن يحاول هو أن يرى هذا الجانب ، لولا ذلك لما جاء هشام وطالبني بأن أسلم عليه ، بالتأكيد أحس هشام أنني أهنت حين ناديته فحاول اصلاح الامر ، نهضت وذهبت الى غرفتهم فوجدته يجلس أمامها ، اقتربت منه ومددت يدي ، نهض من مكانه وسلم قائلاً : أهلاً . ثم انصرف الى الداخل .

رجعت الى الغرفة وقررت أن لا أغادرها مطلقاً ، اختبأت في زاوية منها ، لئلا يراني إلا من دخلها ، قضيت الأيام في لعب الزهر ، كنت اصر على أن نجلس في تلك الزاوية ، لاحظت اهتماماً من صالح ومن اشخاص يعيشون في غرف أخرى ، صاروا يزورونني ويدعونني لزيارتهم في غرفهم ، لم اجرؤ على زيارتهم ، لكني خرجت مع بعضهم

نتمشى في الساحة ، كنت احاول ان نظل جالسين في الغرفة لكنهم اصروا على ان نخرج، مرت ايام وهم يزورونني ، عرضوا علي الانتظام في صفوفهم ، فرحت بذلك خاصة حين سمعت صالح يعرض علي هذا الأمر، لم أصدق في بادىء الأمر ، لكنه أكد لي أنه جاد ، سألته : وهل ترى انني اصلح ان اكون عضواً في تنظيم ؟ قال : لم لا ؟

- ولكني اعترفت ووقعت على إفادة في دائرة المخابرات .

- هذا لا يعني الشيء الكثير ، انت لم توقع بأحد خارج السجن ، لم تسلب احداً حريته وبالتالي فان اعترافك لم يغير شيئاً من الواقع ، انت قلت بأنك مناضل وهذه حقيقة يجب ان تفهمها السلطة إن ليس اليوم فغداً ، كما أن اعترافك عن نفسك بأنك كنت عضواً لن يزيد أو يقلل من الحكم الذي خططوا له .

فرحت قليلاً لكني رفضت عرضهم ، قلت له ولغيره : بصراحة انني إذا ما فكرت بالالتزام معكم فانها ستكون مرحلة مؤقتة للعودة إلى صفوف هشام وهمّام .

استغربوا ذلك وبقيت مُصراً على موقفي ، لم يفدني موقفي هذا في فك عزلتي ، مرت الأيام فاذا بهشام يأتي ثانية ، قال : دعنا نخرج لنتمشى في الساحة .

- لا احتمل رؤية الساحة ومن فيها . قلت .

- نعرف ذلك ، أردنا ان تحاسب نفسك لكننا لا نريد لك الموت .

- ولكنكم تقتلونني ! صحت .

- انت الذي تقتل نفسك ، يجب ان تواجه الأزمة التي تعيشها ويجب ان تفيد منها ، أتعلم أن هناك شخصاً انتحر لإنه اعترف ؟!

- وهل تريديني ان انتحر ؟!

- لا ، لكنني احترمه ، لقد اكتشف بشاعة الجريمةالتي اقترفها فانتحر ، نريدك فقط ان تكتشف ذلك ·

- انكم تسجنونني فبدل ان تساعدوني على تجاوز الأزمة تقتلونني ، إنني استطيع ان اتفهم الوضع السياسي اكثر من غيري ، ها انا في السجن ، افعلوا شيئاً من اجلي ، ساعدوني ، ناقشوني في الاخطاء التي فعلتها لاعود رفيقاً لكم ·

- اسمع يا ماجد ، لو اقترف غيرك هذه الجريمة لما عاملناه بهذه الطريقة ، يجب أن تعرف بأن معاملتنا لك لم تكن قاسية للغاية ، ان المخابرات حين اوقعت بك قطعت شجرة من بستاننا ، هكذا كنا نحسبك ، إننا نتألم أيضاً بسبب تركك صفوفنا ، لا نستطيع ان نعيدك مرة أخرى إلا إذا برهنت أنك اهل لذلك ، لا نحتاج إلى وعيك النظري والسياسي ، هناك الكثيرون يعرفون ذلك ، هناك اكاديميون من حملة الدكتوراه في الحقل السياسي ولكنهم ليسوا بمناضلين ، نحن نريد مناضلين يحملون هذه المهمة السياسية على اكتافهم ، يُضحون من أجلها ، سيكتب الاكاديميون والباحثون عن عملنا ، الفرق بيننا وبينهم أننا نعمل ونفني حياتنا من اجلها ، بينما يضيعون هم في الكتب والملفات، مشكلتك في كفاحيتك ، كنا نقدر ذلك من قبل ، لقد تحدثنا في هذا الأمر قبل اعتقالي ، كنا نود ان نرسلك لتوزيع بيانات في الازقة والمخيمات ، النزول للشارع يصقل التجربة ويخلق كفاحية ، لقد كنت مثقفاً بلا شك ، لقد كنت مناضلاً أيضاً ، لكنك لم تبدأ من تحت بصورة كافية ، أنت عشت في الخليج حيث يعيش المثقفون ، أنت قرأت كثيراً، كنت تتنقل من مكانٍ لآخر بسيارة ، كان نشاطكم الاساسي في الجامعات ، رغم اهمية هذا الشكل من النشاط فانه لا يكفي ، غالباً ما تكون الجامعات بعيدة عن الناس وعن المجتمع ، افكار الجامعة واجواؤها اثرت فيك الكثير ، حتى الكلمات التي تستخدمها هي كلمات جامعية ، الناس في الشارع لا تفهم ما تقوله بسهولة، ثم ان الخليج ليس ساحة اساسية للنضال ، إنها فترة عابرة حيث يعيش الناس هناك بدون مأوىً حقيقي لهم ولا استقرار ، لقد كنت مناضل جامعات ولم تكن مناضل جماهير ، لا بد أنك اكتشفت ذلك وحدك ، ماذا سنفعل لك ؟ كيف سنساعدك ؟ ليس لك عمل في السجن ، كما ترى فان السجناء محدودون ، إنهم سجناء لا يمارسون حياتهم الطبيعية وهم في غالبيتهم لصوص وقتلة وحشاشون فما هي المهمة التي سنكلفك بها لتثبت كفاحيتك ، إن السجن ليس مجتمعاً قائماً بذاته ، إن المجتمع الطبيعي هو خارج السجن حيث يمكن بناء كفاحيتك ، الجماهير هي كل شيء وهي في الخارج ، أما الآن فاننا ندعوك لمواجهة المخابرات ·

- سأواجههم ، لدي الاستعداد للذهاب الآن عندهم وانكر انني وقعت على شيء ·

- لا نستطيع ان نعتمد على ما تقوله الآن ، فقد كنت تقول الكثير ولم تلتزم به ، إذا استطعت ان تفعل ذلك فستكون خطوة مهمة جداً لكنها ستكون الخطوة الأولى ، عندها سيسجنوك مثلنا ولن يغير ذلك كثيراً من وضعك ، ستظل مفصولاً حتى نرى عملك في الخارج ، لكن إذا استدعوك ، بالضرورة سيفعلون ذلك قريباً كما اعتقد ، تستطيع ان تواجههم في أمور اكثر بساطة ، أخشى ان تنكر ما وقعت عليه فتعود لتعترف خاصة وأنت تعيش هذا الوضع النفسي السيء ، يمكنك ان تهيء نفسك لمواجهتهم في المعركة المقبلة، لن يقبلوا بما قلته حتى الآن، يريدون معرفة اصحابك في الخليج ، يريدون معرفة اصدقائك هنا ،

يريدون معرفة رفيق الوطن ، وأهم من ذلك يريدون معرفة اخبارنا ، ماذا ستقول لهم ؟ لقد رضوا حتى الآن بفصلك من الحزب لكنهم سيورطونك في أشياء أخرى إن لم تكن يقظاً ، لا زال امامك مشوار طويل .

- وماذا سأفعل الآن ؟ سألت .

- عش كما أنت ، سأعطيك بعض الكتب لقراءتها ، آمل ان تساعدك على تفهم وضعك .

احضر لي روايتين : شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف ، وقصة الرعب والجراة لاكسندر بيك ، قرأتهما وبكيت ، لقد كنت ارى نفسي ، رأيت جبني لكني رفضته ، قلت لنفسي : لن أموت بالسرعة التي مات فيها رجب ، سأواجههم ، قال رجب بأن الإنسان يمتلك قدرة محددة من التحمل ، أما أنا فيجب أن أمتلك قدرة لا محدودة قبل أن أموت ، أدرك بأن نهايتي الموت ، لكني سأموت بين الجماهير ، سأظل أناضل وأقارع السلطة، لقد القوا برجب جيفة بعد أن هدّته الزنازين ، لا .. لا ، لقد تحمل رجب الكثير ، اكتشف ان قدرته ليس لها حدود ، رغم ان رجب وقّع استنكاراً إلا أنه لم يستنكر حزبه في داخله، إنه مثل مجاهد الذي قابلته في الزنازين ، روح النضال لا تموت بمجرد التوقيع على ورقة ، رجب وقع استنكاراً وأعلن في الجريدة أمام كل الناس ، لكني وقّعت تعهداً بأن لا أمارس العمل السياسي ، السلطة لا تريد مناضلين ، لا تريد وعياً سياسياً جماهيرياً رغم أنها تمارس السياسة ، مَن يود ممارسة النضال لا يأخذ إذناً من أمه ، يمارس ذلك رغماً عنها ، لقد فعلت ذلك أنا أيضاً ، رجب قرّر المواجهة ، عرف أن نهايته تقترب ، أخبره الطبيب بأن لاعلاج له يُشفي مرضه فقرر الموت ، مات بطلاً في

النهاية ، لقد محى آثار الهزيمة ، لا ... لا ، لم يمحها بالكامل لكنه لم يمت خائناً ، أنا الآخر لن أموت خائناً ، كل الناس تعرف بأنني هزمت أمام التحقيق ، سأجعل كل هؤلاء يعرفون بانني سأموت مناضلاً ، سأرغم هؤلاء الذين يبتعدون عني على حمل نعشي والهتاف في جنازتي، سيلفونني عندها بالعلم ويلقون كلمات التأبين ، سيرفق اسمي بالثورة ، سأسمع ذلك ، يقولون بأن الميت يسمع ما يقوله الاحياء حوله ، سأستمع لكل كلمة وإذا ما شعرت باهانة سأدفع البلاطة واخرج من التراب لاناضل وأموت ثانية حتى اسمع كلمات التبجيل بالبطولات التي قمت بها ، يقولون بأن السجن مدرسة ، كم ضحكت حين سمعت محمد يقول : ها أنا أتعلم الطباعة ، ألم يقولوا بأن السجن مدرسة ؟ ضحكت كثيراً ، هذه أول مرة ادخل فيها السجن ، أنا الآن أتعلم ، أتعلم معنى ان يكون الإنسان مناضلاً ، إذا اخترت هذا الطريق ليس أمامك سوى إكماله ، السجن استمرار للنضال خارجه ، لا تعارض بينهما ، مَن يقرر أن يصبح مناضلاً يقرر بالتالي أن يسجن في يوم ما ، كل المناضلين في بلادنا يسجنون ، يقولون بأن كل الناس يكونون قبل الدخول الى السجن أبطالاً وعند الاعتقال يمرون على غربال ، الحَبُ يذهب في ناحية منه والزوان في ناحية أخرى ، أنا لست زواناً ، انني انتمي للحب ، سقطت سهواً في ناحية الزوان ، سأعود مناضلاً ، أنا الآن اناضل ، سمعت كثيراً عن جهاد النفس ، إن جهاد النفس أشد قسوة واكثر صعوبة من جهاد الحرب ، إنني كالماء يغلي حتى تموت كل الجراثيم التي فيه ، لقد سافر رجب الى الخارج فاكتشف نفسه ، أما أنا فسأكتشف نفسي أمام كل الناس هنا ، لو لم اعترف لما عانيت ما أعانيه الآن ، كل شيء بثمنه وها أنا أدفع الثمن باهظاً .

الكسندر بيك قتل السرجنت بارامبايف حين أطلق النار على يده لئلا يشترك في المعركة ، قال القائد : أيها الرفاق المحاربون والآمرون! إن الناس الواقفين أمامكم قد هربوا عندما صرخت "خطر !" - وأمرت بالاسراع "إلى السلاح !" ولكنهم عادوا بعد دقيقة إذ رجع إليه صوابهم ، إلا واحداً لم يعد ، هو الذي كان آمرهم ، وقد أطلق النار على يده حتى يغادر الجبهة . إن هذا الجبان ، هذا الخائن لوطنه ، سيعدم رميا بالرصاص بأمر مني . هذا هو ! التفت إلى بارامبايف وأشرت إليه باصبعي وكان ينظر إلي ، إلي وحدي ، باحثاً عن كوةٍ من الأمل .

قلت متابعاً : إنه يحب الحياة ، إنه يريد التمتع بالهواء وبالأرض وبالسماء ! وقد قر قراره هكذا : موتوا أنتم ، أما أنا فساحيا . هكذا يحيا الطفيليون على حساب الآخرين .

نعم سيقتل من يقتل في المعارك ولكن من سيموت محارباً لن ينساه الوطن . انما سيقول عنه الأبناء والبنات بفخر واعتزاز : «لقد كان والدنا بطل الحرب الوطنية!» وسيقول هذا عنه احفاده واحفاد احفاده . ولكن هل سنموت جميعاً حقاً ؟ كلا . إن المحارب يذهب إلى القتال لا لكي يموت بل لكي يقتل العدو . ألا وأن من يعود إلى بيته بعد أن يؤدي واجبه في ساحة الوغى ، سيسمى هو الآخر بطل الحرب الوطنية . بطل ! لشد ما في هذه اللفظه من اعتزاز . إننا معشر المحاربين الشرفاء نعرف حلاوة المجد ، أما أنت - وتوجهت مرة أخرى إلى بارامبايف ، - فسترمى هنا كالجيفة ، لا شرف ولا ضمير ، وسينكرك أولادك ويعرضون عنك(*)»

لقد قتله ، قتله حين جَبُنَ في المرة الثانية ، لقد صفح القائد عن الجميع بعد أن هربوا ولكنه أعدمه حين حاول الامتناع عن القتال

باطلاق الرصاص على يده ، نعم ، إنه يستحق القتل بعدها ، لن أجبن مرة أخرى ، هذه تجربتي الاولى وقد فشلت فيها ، ليس مسموحا لي أن أفشل ثانية ، يجب أن انتزع بذور الفشل من نفسي ، لقد ضاعت الفرصة الأولى وبالتالي يجب أن أظل متيقظاً منذ الآن ، ليس صحيحاً أن شرف المرأة كعودالكبريت إذا احترق مرة انتهى ، لا ... لا ، ليس هناك علاقة بين شرف المرأة وشرف الرجل وعود الكبريت ، إن «يوسف وهبي» أراد اختصار العالم في عود كبريت ، إن الإنسان شيء آخر ، الإنسان إنسان ، الإنسان يظل مشتعلاً وإذا اطفيء مرة يعود فيشتعل من جديد ، أنا سأثبت ذلك ، لقد اثبت رجب جزءاً منه وأنا سأثبته أيضاً، القوانين الملائمة للجماد لا تنطبق على بني البشر ، بنو البشر يملكون عقولاً ، هم من يشعلون الكبريت وهم مَن يطفئون النار ، الدين يصفح عن الخطأ الاول ، لقد تخلّف كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع عن غزوة تبوك ، كان الحر شديداً والسفر بعيداً والعدو كثيراً ، طابت الثمار و الظلال ، مضت الأيام دون أن يلحقوا بالرسول ، فلما عاد صلى ركعتين في المسجد وجلس ، جاءه المتخلفون للاعتذار ، أقسموا له ، قبل الرسول اعتذارهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم لله ، فلما جاء كعب بن مالك وجلس بين يديه ، قال : ما خلّفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟!

- يا رسول الله ، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقداعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد فيه أني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

- أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك . أجاب الرسول .

فقام وجاء لكعب من بني سلمة ، لاموه على أنه لم يكذب لكان نال رضى رسول الله ، وكاد أن يعود فيكذب ، فسألهم إن كان آخرون فعلوا مثله فاخبروه عن هلال بن أمية ومرارة بن الربيع العامري ، عرف أنهما رجلان صالحان ، ونهى الرسول المسلمين عن التكلم معهما ، اجتنبا الناس ، شعرا بأن الأرض تنكرت لهما ، لبثا على ذلك خمسين ليلة ، قعدا في بيتيهما يبكيان ما عدا كعباً إذ كان يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف بالاسواق فلا يكلمه أحد ، كان يلقي بالتحية ولا يسمع رداً ، أعرض عنه الرسول وصحبه ، طلب الرسول منهم أن يعتزلوا نساءهم وألا يقربوهن ، ظلوا كذلك حتى سمعوا المنادي يبشرهم بالتوبة إثر نزول الآية : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

لقد تاب اللهم عليهم ، وما أريده فقط هو التوبة ، رفعت رأسي نحوالسماء وقلت : التوبة ... التوبة ... التوبة ، لن أخون ، لن أجبن، لن أهزم ، لقد مَر على وجودي اكثر من خمسين يوماً دون أن أنال التوبة ، لقد تاب الله على المتخلفين بعد مرور الأيام الخمسين فكم يوماً يستغرق البشر لاستيعاب ذلك ؟!

شعرت بالملل والضجر في الغرفة ، حتى الكتب التي احضرها هشام سجنتني ، وددت لو أخرج إلى الساحة ، كانت هناك مباراة كرة

قدم ، وقفت مع السجناء أتفرج ، وجدت نفسي أقف بجانب حاتم ، ذلك الرفيق الذي عَرفني على السجن منذ وصولي ، قلت له : مرحباً .

رد التحية ، ابتسم ، شعرت أنه يذكرني بعيبي ، لعد لحظات التفت نحوه فلم أجده ، يبدو أنه لم يرد البقاء بجانبي ، لقد ذهب إلى مكان آخر حول الملعب ، لم استطع إكمال المباراة فعدت إلى الغرفة .

في يوم الزيارة ، انتظرت سماع اسمي ينادونه ، لم اسمعه ، وددت أن أرى الناس ، ذهبت إلى شبك الزيارة ، فرحت وأنا أراهم رغم أني لم أعرف أحداً منهم ، جاءني هشام بعد عودتي إلى الغرفة قائلاً :لماذا رأيتك هناك ؟ هل نادوك ؟

- لا ، لكني قرفت السجن ، لم يأت الاقارب لزيارتي منذ فترة ، وددت أن أرى الزائرين من بعيد ، هل تعتقد بانني اخطأت ؟

- نعم ، جاءني صالح وأخبرني أنه رآك هناك ، ليس مسموحاً لك أو لغيرك بالذهاب هناك إلا إذا طُلبوا ، في العادة يمسك بهم صالح ويطردهم وأحياناً يضربهم .

- يضربهم ! لماذا ؟

- لإن البعض يذهبون هناك للتجسس على الاحاديث التي تجري بين السجناء السياسيين وزائريهم ، وهناك مَن يذهب لمغازلة الفتيات .

- وهل تعتقد اني ذهبت من أجل ذلك ؟!

- لا ، من الأفضل أن لا تذهب هناك والإ سنعاملك بطريقة أخرى .

هذا سجن ، سجن ، ندمت كثيراً على ذهابي ، لكني وددت أن لا أفهم بطريقة خاطئة ، أنا لست جاسوساً ولست بلا اخلاق ، صرت ابتعد عن كل من أراهم ، خشيت أن يشك بي إذا ما وجدت سجناء سياسيين يجلسون في ساحة شبك ما ، صار كل السجن سجناً ، الساحات أصبحت

سجناً ، والغرفة أصبحت سجناً ، أعرف انني أعيش في السجن ولكن ما يحدث لا يسمح لي حتى بالتجول فيه ، جلست في الغرفة ، تجرأت وجلست على عتبتها ·

مرت الأيام والاسابيع قبل أن أسمع اسمي ينادونه ، ذهبت مسرعاً ، وجدت خالي ،سألته عن والديّ ، فقال : سيأتيان من الوطن بعد أيام ·

حاولت أن أسأله عن الناس والأقارب لكني فوجئت بسؤاله ، قال بلهجة مستنكرة : هل كنتم تتبادلون البنت في بيتكم ؟!

- أية بنت تقصد ياخالي ؟!
- البنت التي اعتقلت معكم ·
- ماذا تقول ! إنها زوجة همام ، همام الآن في السجن ، كيف نتبادلها !
- مَن قال لك انها زوجته ، لقد أخبرني رجل المخابرات بأن ليس بينهما عقد زواج ·
- صحيح ، لكنه زوجها ، تزوجها وهو مطارد ·
- هذا ليس زواجاً إذاً ، لقد كنتم تتبادلونها ·
- ماذا تقول ؟! لقد كانت مثل اختي ، لم افكر في ذلك مطلقاً ، نحن لا نفعل ذلك ·

احتد قليلاً وقال : والله لو كنت أعرف أنك فعلت هكذا لما سمحت لك بدخول بيتي ·

- إن شئت لا تدخلني بيتك بعد الآن ، لكن الحقيقة واضحة لي وستتضح لك أيضاً ، على كل حال أرى أنك مكثت هنا طويلاً ولا ضرورة لاجهادك ، مع السلامة ·

ماذا يقول خالي ! لم أفعل ذلك مطلقاً ، لقد عشت معها شهوراً وحدنا دون أن ألمسها ، لم أفكر بذلك أبداً ، لقد كانت غريزتي تطاردني

ولكني لم أفعل ذلك ، كنا نتحدث بصراحة وكأننا لسنا جنسين مختلفين ، لقد نسيت أنها إمرأة ، قلت لها مرة : يجب أن أمارس الجنس ، لقد دعتني إحداهن لمضاجعتها ، ما رأيك ؟

احتدت وقالت : مَن التي ستضاجعها ؟ أتريد امرأة منحلة لتفعل ذلك معها ! حينها لن أعيش معك ، أمامك بنت واحدة فقط ، إنها ريم ، هذه التي تقول بأنك تحبها ، كيف ستمارس الجنس مع فتاة لا تحبها ؟! ماذا ستقول عندها لريم ؟! إذا كنت لا تحب ريم فابحث عن غيرها أما إذا كنت تحبها فلا تخنها ، الحب هو جزء من الجنس ، كيف ستلاطف إمرأة تراها أول مرة ، ستقذف في داخلها وتنهض ، لن تكلمها وإذا ما حدثتها بأية كلمة تدل على حبك لها فانك تكذب ، افعل ذلك بيدك ، من الأفضل أن تمارس الجنس مع نفسك على أن تمارسه مع عاهرة ·

مسكينة زينب ، خالي يتهمني بها ، لا يمكن أن يفكر بغير هذه الطريقة ، لم أفعل ذلك أبداً، وحين اعتقلنا خشيت أن يغتصبوها ، صحيح أنها أمراة لكنها قوية ، كنت اتصورها وهم يحاولون معها ، تصورت أنها تمسك حذاء وتضربهم ، تذكرت بعدها اني رأيتها حافية في مكتب تحقيق في الليلة الاولى لاعتقالنا ، عرفتها بعد اعتقال هشام، التقيتها في الجبل الغربي بناء على موعد دون أن اكون قد عرفتها مسبقاً ، زينب جميلة ، سكنت في بيت وحدها في باديء الأمر وهمام سكن في بيت ثانٍ وأنا في بيت ثالث ، قال همام : لا تتركها وحدها · صرت أنام في نفس البيت الذي تنام فيه ، بل في نفس الغرفة ، اخبرت الجيران وصاحب البيت أنها أختي تسعى للحصول على مقعد في الجامعة وستقوم بخدمتي وأنا أدرس ·

كنا نسهر معاً حتى منتصف الليل ، نتحدث عن آخر الاخبار

السياسة ومن ثم اسمع صوتها وهي تقرأ شعراً أو تغني اغنية لعزة بلبع ، كانت تحبها ، كانت تغني للثورة الايرانية ، وكنا نغني معاً لمارسيل خليفة واحمد قعبور والشيخ امام ، استمعنا لفيروز ورحنا نناقش فنها ، هكذا كانت تنقضي الليالي .

توثقت العلاقة بها مع مرور الأيام ، صرت أشعر أنها اختي بالفعل حتى وهي تتحدث عن أمور جنسية ، كانت لا تثيرني رغم جمالها ، حدثتني عن الجارة مرة ، أثارتني الجارة ولم تثرني زينب ، سألتها عن زواجها بهمام ، قالت بأنها تعرفت به في بيروت . كان يراسلها وتراسله إلى أن طلب همام منها المجيء ليتزوجا ، قالت لامها : إني ذاهبة لاتزوج. اجابتها : يوجد كثيرون هنا يرغبون في الارتباط بك ، إنك ترفضينهم ، إنك تذهبين هناك لتتزوجي وترفضين حتى إقامة حفل زفاف يليق بك ! ألا يكفينا أننا فقدنا أباك تحت عجلات الجرافة في وهج رمل الصحراء وحرارته ، هل سنهدم ما تبقى من عاداتنا الاجتماعية وتماسكنا الأسري ، لماذا لا يأتي هنا ويتزوجك وتذهبان بعدها اينما تريدان ، لا تنسي أنك ابنتي وأريد أن أفرح لفرحك . فقالت زينب : أنت تزوجت وترملت أيضاً ، جاء دوري ، الذي أريده يعيش الآن في الوادي ولا تنسيَ انني أرضخ لقرار حزبي بغض النظر عن المسائل الاجتماعية التافهة .

ودعتها ودموع أمها تغسل وجنتيها وجاءت ، تزوجت ، لكنها لم تر زوجها سوى أيام معدودة ، حتى الزواج لم تستمتع به ، من المؤكد إن زينب أفرج عنها وعادت إلى أهلها ، إنها الآن بين احضان أمها ، النظام هنا لا يسجن النساء بتهم سياسية ، حين اعتقلت زوجة هشام مكثت في التحقيق ساعات وخرجت ، سألوها عن كل شيء ، عن هشام ، هدّدوها

بالسجن والتعذيب ، هدّدوا بفضحها أمام كل الناس لانها تزوجت خارج المحاكم الشرعية ، لم تعترف وأفرج عنها ، قال همام يومها :السلطة لا تفرق بين شاب وشابة عندالتصدي لها ، العقوبة ستكون نفسها ، هكذا ينص القانون ، لم يتطرق قانون سلطتهم إلى أن الفتاة لا تحكم بتهمة سياسية ، الرجل يناضل ويحكم وبالتالي إذا قامت المرأة بنفس العمل تقوم السلطة بنفس الاجراء ، السلطة لا يهمها العلاقات الاجتماعية في خدمة المحافظة على ذاتها ، الرجل ينقل البيانات ويوزعها ويقاتل ، والمرأة إذا قامت بنفس العمل أصبح لا فرق بينهما ، ستضرب السلطة كل الاعتبارات الانسانية في سبيل المحافظة على ذاتها ، كيف خرجت زوجة هشام ؟! لا يمكن أن يفرجوا عنها لحسن نيتهم فهنالك احتمالان :إما أنهم أرادوا الوصول إلى غيرها ممن لم يعتقلوا بعد ، يريدون الوصول إلينا ، ومن الجائز أنهم الصقوا بجسدها وثيابها آلة لاقطة تدل على تحركاتها وسماع ما يدور بخلدها وما حولها ، وإما أنها اعترفت واستنكرت الحزب ولا يوجد هناك احتمال آخر .

قرّر أن يلتقي بها في بيت بعد مراقبة طويلة ، استمع لكل كلمة تفوهت بها ، وجه لها تهمة الاعتراف ، أنكرت ، أبلغها بتجميد عضويتها لحين اتضاح الأمور وقال : لن أتصل بك منذ الآن ، تدبري أمورك وحدك . قالت : لقد سمحوا لي بالسفر إلى الخليج عند اهلي ، سأسافر غداً ، امهلتني السلطة اسبوعاً ؛ كفلني عمي ، سأتصل بالرفاق هناك وسأوضح لهم كل ما يطلبونه ، يبدو أنكم لا تصدقوني ، ولا تريدون الاهتمام بي إذا ما قررت المكوث هنا ، هناك في الخليج يعيش أهلي ، سأذهب عندهم ، مأواي الوحيد في مثل هذا الوضع هو أهلي .

أجابها : تدبري أمرك وحدك وسنبت في قضيتك بعد اتضاح الامور .

هكذا كان يتعامل الحزب مع زينب وغيرها ، ولقد كنت أنا جزءاً من هذا الحزب ، زينب بالنسبة لي ليست انثى ، لقد كانت تقوم بالأعمال النضالية كما كنت أنا ، إنها انثى فقط لزوجها وها هو خالي يتهمني بها . أين أنت يا ريم ، لقدكنت ابعد شبحك عني وأنا في الزنازين ، كان المعلم في المدرسة يقول : إذا كنت لا تستطيع إجابة اسئلة الامتحان ، انسها وفكر في أشياء جميلة .

لقد كانت الأزمة التي أعيشها قبيل الاعتراف تهزني ، لقد كانت تعصر دماغي عصراً ، حاولت أن أفكر بريم أيضاً فتضيف لي أزمة جديدة ، لقد كان اللقاء بريم جميلاً في بدايته لكنه في الأيام الاخيرة قبل اعتقالي تحول إلى أزمة ، ريم لم تكن حبيبتي ، كانت مشروع حبيبة ، تعرفت عليها في بيت خالي نظرت نحوي باعجاب وأنا كذلك ، كانت صغيرة بالنسبة لي ، اكبرها بخمس سنوات لكنها ناضجة الجسم وجميلة ، عيناها نوريتان كحليتان ، بشرتها سمراء ، شفاهها متوردة ، شعرها ناعم مسدل على كتفيها ، خصرها نحيل ، قالت ودون مقدمة : حدثوني عنك كثيراً وكم وددت رؤيتك .

ـ وأنا كذلك . قلت ، واكملت : أراك جريئة وحلوة الروح .

ـ وأنا أراك كذلك .

صرنا نلتقي بين فترة وأخرى ، تأتي وتجلس بجانبي ، أعجبت بها، قلت في نفسي : ستكون مشروعاً لمناضلة ، فهي لا تخشى الاقارب والأمل يشع من عينيها . سألتني إن كنت مرتبطا بعلاقة عاطفية ، أجبت بالنفي ، ضحكت ، مالت نحوي قليلاً ، قامت نحو المطبخ وصنعت شاياً لنا جميعاً ، لم استطع الهروب من عينيها ، لاحظ ابن

خالي ذلك ، ابتسم وراح في الأيام التالية يخبرني بأن ريم جاءت وسألت عني ، صرت التقي بها كل يوم خميس ، الغيت كل مواعيد الخميس من أجلها وصرت انتظرها ، أعيش في نشوة تخترق كل جسدي ، نجلس ونتحدث ، أقرأ لها شعراً لمحمود درويش وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وقصصاً لغسان كنفاني ، كنت أشعر أن هذا الاسلوب هو الأفضل لاقحامها في ساحة النضال ، وكلما أرفع عينيّ نحوها أجدها تضع رأسها بين يديها وتدقق النظر فيّ كأنها تقول : أريدك أنت ولهذا أسمعك . كنت أنا الآخر أشعر بضرورة أن أدقق النظر في وجهها وعيونها ، لكنني أردت أن ابني علاقة شبه حزبية على الأقل ، قالت : احبك .

أصابني ارتباك ، شعرت بالفرح واستصغرت نفسي أيضاً لانني لم اكن المبادر ، قلت : انني أرغب أن احبك لكن لا تتسرعي ، لنبن هذا الحب خطوة خطوة ، هناك أشياء كثيرة سأقولها لك .

لم تعجبها كلمة تسرع التي قلتها ، شعرت بها تجفل ، قالت : أنتم الرجال تفهمون الأشياء بشكل آخر .

ـ لم أفهمها بشكل آخر ، لكنني أومن أن الحب له مقدمات منها الالتقاء الفكري .

ـ وكيف يمكن تحقيقه ؟!

ـ لنتفق : كلما رأيتك أشعر انني لا استيطع طرق هذا الموضوع الفكري، لنخصص جلساتنا للانسجام الشخصي ، أما الانسجام الفكري فسنحققه من خلال الرسائل ، كل اسبوع اسلمك رسالة اكتب فيها عن أحد المواضيع وتجيبين عليها بشكل مكتوب ، هذا إضافة لبعض الكتب التي سأعطيك .

سلمتها رسائل كثيرة دون أن اتلقى جواباً ، صرخت فيها مرة بسبب اهمالها هذا الجانب ، قالت : يعجبني ما تكتبه ، لكني لا أفهم منه إلا القليل ، أريد أن تكتب لي شيئاً آخر ،اكتب لي عن عواطفك .

اعترفت بفشلي معها ، كل منا يحب الآخر وبقي هذا الجزء الاساسي ناقصاً ، قبل اعتقالي بأيام جاءت تقول : الأمر خطير !

- أين الخطر ؟
- سمعت أن احد الاشخاص يريد «طلب يدي» من أخي .
- ما رأيك انت ؟
- لقد جئت اخبرك بما يحدث ، افعل ما تراه مناسباً قبل أن يفوت الأوان .
- وضعي أنا الآخر خطير في هذه المرحلة ،أنا احبك ، لكني لا استطيع أن أقرر الزواج منك الآن ، ستعانين يا ريم من أجلي إن ارتبطت بك الآن، حاولي أن تخبري أخاك وزوجته أنك تريدينني .
- إذهب واخبرهما أنت .
- وماذا لو قالا : اخطبها الآن ؟
- لا تتركني .
- افسحي لي مجالاً حتى افكر في الطريقة التي يمكن أن أتحدث معهما بها .

مرت الأيام دون أن أقرر شيئاً فوجدت نفسي في السجن ، سبحت في احلامها فوجدت السبل مغلقة أمامي ، وددت أن اكتب لها رسالة ، لم أجد عنوانها ، انتظرت حتى جاءت أمي ، لاول مرة بكيت أمامها ، أمسكت بيدها ، قبلتها وبكيت ، قالت : ما بك يا ابني ؟!

- انني في السجن يا أمي .

- وأين يعيش هؤلاء الذين حولك ! ألا يعيشون في السجن أيضاً !
- أنا في سجن يا امي ، لو تدرين .
- السجن للرجال يا ابني ، لقد صرت رجلاً .
- لم تقولي ذلك من قبل يا أمي .
- لا تجعلني أحزن ، لقد كنت افتخر بابتسامتك في اللقاءات الماضية ، لا تمتتني يا ابني ، ستخرج في يوم ما ، آمل أن يكون ذلك قريباً .

خجلت من نفسي ، طلبت شاياً وسألتها : ما أخبار ريم ؟

- لا تسأل عنها ، يبدو أن ليس لك نصيب فيها ، اهلها لن ينتظرونك حتى تخرج ، لقد اتفقوا على خطبتها .
- خطبتها ! متى !
- لا أعرف ، لكنهم اتفقوا ، ربما سينتظرون انهاء سنتها الدراسية أو مجيء اخوانها من السفر .
- ألا تستطيعون منع ذلك ؟
- لا ، كيف ترغب يا ابني بفتاة يريدها غيرك ، اقتل حبها وسيرزقك الله بغيرها عندما تخرج من السجن .

يجب أن أقتل بقايا حبها ، يجب أن تقتل بقايا حبي ، ولماذا تحبني ! لم أعد ذلك الشاب الذي عرفته من قبل ، هي لا تعرف ذلك لكني سأخبرها ، هي تريد في النهاية شاباً، تريد زوجاً ، وما فعلناه أننا كنا عشاقاً ، لقد كبحت جماح عشقها ، أدرك جيداً أنني لا استطيع الزواج في هذا الوقت ، لا استطيع منافسة المتقدم للارتباط بها ، ظروفي العامة والخاصة لا تسمح لي بذلك ، أنا في السجن ولا أعرف متى سأخرج ، أنا اعترفت وسأبدأ مع نفسي من جديد قبل أن أبدأ مع غيري ، لم أعد ماجد الذي عرفته من قبل ، أنا الآن شيء آخر ، لا أعرف

بالضبط ماذا سأقول لها إن رأيتها ، أدرك وضعها جيداً وأدرك الطرف الصعب الذي تعيشه ، لكن لا بد أنها تفكر بي هي الأخرى ، هل ما زالت تحبني .! وماذا ينفع الحب ! الحب في بلادنا ليس حباً ، إنه لا يبني لإقامة حياة مشتركة ، إنه يبني فقط لافراغ الكبت الجنسي ، الجنس ضرورة للحياة الزوجية لكنه ليس كلها ، زينب قالت بأن الانسان يستطيع ان يُفرغ كبته الجنسي مع نفسه ، الجنس يكون فقط جنساً حين يمارس مع الإنسان لبناء علاقة إنسانية ، الخلافات الزوجية التي نراها تتفجر بسبب عدم ممارسة الجنس على قاعدة إنسانية ، على قاعدة احترام الطرف الآخر ، الكثير من الرجال في بلادنا يضربون زوجاتهم ، كيف يضاجعوهن بعدها ! لا أعرف ، لا استطيع ادراك ذلك رغم أنه يحدث ، هناك الكثيرون ممّن يضربون زوجاتهم بسبب عدم تلبية حاجتهم الجنسية ، يقولون لهن : رغماً عنكن ستقبلن ، وإن لم تقبلن ذلك الآن ستقبلنه بعد الضرب . إنهم يغتصبوهن ، يفكرون فقط بأنفسهم ، لست متأكداً إذا كانت معظم نساء مجتمعنا يستمتعن بالجنس ، الرجل يفعل ذلك وحين ينتهي ينهض من فوقها ، يتركها كما الجيفة ، يُلقي بسائله داخلها وينهض ، لا يهمه كيف تفكر زوجته، لا يهمه إن كانت تستمتع به أم لا ، إنها مجرد وعاء ، يلقي بقمامته فيها ، هو الذي يطلب ممارسته ، وهو الذي يبدأه وهو الذي ينهيه ، لم أسمع ان هناك امرأة تطلب ذلك من زوجها ، ربما لو فعلت لشك فيها ، لا يريدها ان تكون مثله ، فهو الرجل وهي المرأة ، مسكينة ابنة مجتمعنا ، ما زلنا في البداية ، علينا عمل الكثير ، لقد صرحت ريم بحبها لي ولكنها ستقبل بغيري زوجاً لها ، الحب في بلادنا شيء والزواج شيء آخر ، هكذا يفهمه مجتمعنا ، من أين نبدأ ! لا أعرف ، لكنني اعرف

ان زينب شيء آخر مختلف تماماً ، لو استطيع ان اجعل من ريم زينب ، لقد ضاعت ريم وضعت أنا الآخر ، سأبحث عن زينبي كما بحث همّام عن زينبه .

حاولت أن أنسى ريم ومشروع خطبتها فلم استطع ، حاولت ان اهرب من مواجهة همّام فلم استطع ، حاولت ان انسى اهلي فلم استطع ، حاولت ان اخرج من السجن فلم استطع ، لماذا هذا التناقض بين الابعاد الأربعة هذه ، لماذا يجب أن يكون الواحد على حساب الآخر ، لماذا لا يمكن الجمع بين النقائض رغم ان الحياة تجمع بينهما ، إن الحياة اكثر اتساعاً مما نحدده لانفسنا ، يبدو ان كل شخص يبحث له عن عقيدة أو مبدأ وبذلك يضع نفسه في زاوية ما يرى من خلالها العالم ، يرضى لنفسه أن يجد أصدقاء ، ويرضى لنفسه أن يبحث عن أعداء ، حتى تحقق ذاتك يلزمك البحث عن النقيضين : الأصدقاء والاعداء ، حين قرأت مرة بأن الحقيقة لها وجهان وأخبرت همام ، قال : الحقيقة لها وجه واحد فقط . أين الحقيقة ؟! كل واحد منا يعتمد على معطيات معينة ليُثبت الحقيقة التي يريد التوصل إليها، وآخرون يعتمدون على معطيات أُخرى من نفس الحدث لاثبات حقيقة تناقض الأولى ، أنا نفسي كنت ادعي أنني املك الحقيقة ، قلت مرات كثيرة : إذا اردتم معرفة الحقيقة تعالوا نتحادث . مجاهد أيضاً قال ذلك ، إننا الآن نتحدث على ان مرحلة التحرر الوطني واسعة جداً ، تضم كل الناس ما عدا العملاء ، أما بعد التحرير فيحدث اصطفاف جديد ، سأكون في مواجهة مجاهد ، كل القوى تريد الاستفراد بالسلطة دون الآخرين . الذي يصل أولاً يقمع الآخرين ، الذي يصل يعيش على حساب الآخرين ، كيف ؟ألا يمكن ان يعيشوا معاً ، لماذا يجب التخلص من الآخرين ، أنا

الآن أعيش في غرفة لم اخترها ، هشام ورفاقه هم الذين اختاروا لي هذا المكان والسلطة هي التي اختارت لي السجن ، ماذا أفعل ! يجب أن أعيش .

وطدت علاقاتي بمن يعيش في نفس المكان ، كنت أتحدث مع محمد عن الماضي النضالي ويفعل هو ذلك أيضاً ، كنا نستمتع بهذا الحديث ، كدنا ننسى الواقع الصعب الذي نعيشه ، الفرح الذي كان يكسو ملامحنا عند الحديث كان غامراً ومغيراً لسلوك زملائنا في الغرفة ، لقد كانوا يستجيبون لكل اقتراح نقوله ودون تردد ، عملنا على تقسيم العمل في الغرفة بشكل أفضل ، ابقينا على الغرفة نظيفة ، احضرنا جهاز تلفاز نشاهد برامجه ليلاً ، اشترينا دهاناً وعملناعلى طلاء جدرانها ، اشترينا خشباً وصنعنا رفوفاً للأواني ، طلبنا كتباً من الزائرين لإقامة مشروع مكتبة ، قرأنا الكتب وناقشناها معاً ، وجدت أن أحمد اكثر تعلقاً بقراءة الكتب ، فتوثقت علاقاتي به ، ضحكنا معاً ، لعبنا الزهر معاً وبكينا معاً ، حملت له زوجته كمية من الحلويات ، أخبرته بأنهم الغوا قرار الإعدام ، في ذلك اليوم امسك عوده وغنى في الساحة ، كلما انهى اغنية انتقل الى غيرها ، تحوّل السجن الى عرس ، شربت القهوة ووزعت الحلويات ، في اليوم التالي امسك عوده ودار من غرفة الى غرفة ومن شبك الى شبك ، غنى في كل منها اغنية يفضلونها ، احياناً كان يعزف والسجناء يغنون ، انتشر الخبر في كل السجن بأن احمد لن يعدم وسيقضي حياته في السجن .

نمنا تلك الليلة بدون ارق ونحن نحلم بالحرية ، صحونا على صوت أقفال الغرفة تفتح، نظرت الى الساعة فاذا بها الواحدة بعد منتصف الليل ، كانوا ثلاثة رجال شرطة، اقتربوا من احمد وقالوا : ارتد

ثيابك وودع الشباب .

- هل يعني هذا انكم ستعدمونني ؟ قال صائحاً .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

- لكن زوجتي احضرت الحلويات بمناسبة إلغاء قرار الاعدام .

- سمعنا عن ذلك في السجن لكن قرار الاعدام ووفق عليه منذ يومين .

اندفعنا نحوه مودعين ، ضممته بشدة ، قبلته كثيراً والدموع تنساب على كتفينا ، وقفت في الزواية باكياً ، التفت نحوه فوجدته صامتاً ، جفت دموعه مرة واحدة ، كان يودع الزملاء دون اية علامات للحزن او الخوف ، حين انهى ذلك ، التفت نحو الضابط وقال : انا جاهز .

امسكا به من مرفقيه وسار ضابطهم وراءهم ، اصبت بالدهشة، وقفنا وراء الباب نراقب الظلمة والسكون الذي خيّم ، سمعنا اصوات السجناء من الغرف الأخرى يسألون عن المنوي اعدامه ، قلنا كلمة واحدة : احمد .

بقينا على هذا الحال ما يقارب الساعتين ، قام محمد وغلى القهوة، شربنا معاً دون ان نتكلم فاذا بهم يأتون به إلى غرفة المشنقة ، كان يرتدي قميصاً وسروالاً أحمرين ، يرافقه بعض الضباط وشيخ ، وقفنا جميعاً وسمعت اصواتاً مرتفعة تقول : اصمد يا احمد ، سيأتي يوم الظالم قريباً .

انفجرت باكياً فانقض احدهم عليّ ، وضع يده على فمي وقال : لا تبكِ ، إذا سمعك سينهار ، هذه لحظاته الأخيرة ، الناس تبكي الميت ولا تبكي الحي .

استرددت دموعي ووقفت ثانية ، توجهت أنظارنا نحو غرفة

المشنقة ، من زاوية فيها كنا نستطيع مشاهدة رأسه ، كنا نسمع وقع اقدام على قطع خشبية ، تقدم منه الشيخ ، همس في اذنه شيئاً ، قال احمد شيئاً هو الآخر ، وضعوا كيساً على رأسه حتى الكتفين ، أزاحوا احمدَ نحو اليمين ونحو اليسار ، استجاب لكل ما طلبوه بسهولة ، كان يفعل ذلك كأنه في استوديو ويريد ان يتصور ، وضعوا حلقة الحبل حول عنقه دون ان يتحرك ، وضعوا العقدة على كتفه ، هرب بعض رجال الشرطة من الغرفة ، لحظات فاذا بصوت قطع خشبية وأزيز حديدي يملأ السجن ضجيجاً وجسم يهوي ، لقد مات ، ظلت الدموع في محاجرها ، جلسنا على الأرض دون أن نهمس ، سمعت صوت شهيق وزفير من حولي ، فتح الباب ثانية ونقل احمد على حمالة مغطاة ببطانية ، انزلقت يده اليمنى وكأنه يودعنا ، اعادها الشرطي تحت البطانية ، تسللنا نحو الفراش حتى الصباح ، فتحت الأقفال وتوالت جموع المعزين، يذكرون طيبته وحساسيته المفرطة ويغادرون ليأتي آخرون ٠

مضت الأيام الثلاثة دون قدرة على طهي الطعام ، كان السجناء في الغرف الأخرى يفعلون لنا ذلك ، شعرت بالوحدة والاغتراب والسجن ، كنت اود الانتقال الى غرفة اخرى لكني لم أجرؤ على قول ذلك لصالح أو لهشام ، صرت ابتعد في النهار عن الشبك الأول وأتيه في الأشباك الأخرى حتى موعد اقفالها ، لم أعد احتمل حياتي الجديدة، مات من كنت العب واغني معه واحادثه ، حتى محمد ابتعدت عنه وابتعد عني ، شعرت بتودد من سجين في الغرفة المجاورة ، شعر بما احس به ، تناول سيجارتين اعطاني احداهما وقال : دخن ٠

- لا أدخن ٠ قلت ٠

- جرب ذلك يا رجل ٠

اشعلتها ورحت انفث دخانها في الهواء ، قال : إذا أردت ان تدخن فافعل مثلي ٠

- كيف ؟

- اسحب الدخان الى الداخل ، اجعله يصل رئتيك ثم اخرجه مرة أخرى ٠

- جربت من قبل فلم استطع ٠

- ستستطيع هذه المرة ٠

فعلت فوجدته لذيذاً ، احسست بشيء من الدوار ، قال : اعرفت ما معنى التدخين ؟

طلبت سيجارة اخرى ، وجدتها تسلية لذيذة ، نهضت واشتريت علبة سجائر وظللت ادخن ، سألته : ما تهمتك ؟

- تعاطيت الحشيش ٠

- الحشيش !

- نعم الحشيش ، او تريدني ان اكذب عليك ؟

- لا ، ولكن يبدو عليك انك انسان طيب لا علاقة له بالحشيش ٠

- ومَن قال ان كل من يتناول الحشيش سيء ، ألا يوجد أناس سيئون ويتعاطون السياسة !

- نعم ، ولكنك سجين بناء على تعاطيك الحشيش ٠

- صحيح ، وانت سجين بناء على تعاطيك السياسة ، ألم يسجنوك لإنك تفكر وتتكلم !

- نعم ٠

- وسجنوني أيضاً لأنني أشرب ، التفكير والكلام والشرب عند الدولة مُراقب ويعاقب صاحبه ٠

- لا يمكنك أيها الصديق الجديد ان تقارن متعاطي الحشيش بالمناضلين من أجل الحرية .

- أنا احترم مَن يناضلون من أجل الحرية والديمقراطية لذلك جئت وجلست معك ولكن ديمقراطيتي تزيد على ديمقراطيتكم ، الديمقراطية بالنسبة لي لا تعني فقط حق ممارسة الجماعات لحقوقها وانما حق الفرد في ممارسة حقوقه أيضاً ، وأنا أريد ممارسة حقي في الأكل والشرب ، ديمقراطية الجماعات تسمح بقمع الاقلية لكن ما افعله لا يقمع احداً .

- لكن تعاطي المخدرات يفسد المجتمع .

- بل يفسد الشخص الذي يتناوله ، وإذا كان هذا قراره فلماذا نمنعه ؟

- كم سنة حكمت ؟

- إن اخبرتهم عن اصدقائي سيفرجون عني وإلا حكموا علي بعشر سنوات .

- ولماذا لا تخبرهم ، لو كنت مكانك لعملت ايضاً في قسم مكافحة المخدرات .

- الذي يشي برفاقه يخون وأنا لا أريد ان اكون خائناً .

ضحكت كثيراً ، وضحك هو الآخر من اعماقه، قلت : أتقول رفاقاً !

- نعم ، انهم رفاق دربي ، لقد كنا نسهر معاً ونأكل معاً ونتنزه معاً ، أليسوا إذاً رفاقاً ؟!

- بل قل رفاق السوء . وضحكت .

- إنهم بالنسبة لك رفاق سوء ، اما بالنسبة لي فشيء آخر ، انتم ايها السياسيون غريبون ، تثورون على الوضع القائم ولا تستطيعون فهمنا .

عجباً لهذا الرجل ، يُسمي متعاطي المخدرات رفاقاً ، ويريد ديمقراطية منحلة ، رغم ذلك استلطفته واحترمته ايضاً ، لقد كان يدافع عن قناعاته وسيقضي من اجلها عشر سنوات ، غريب ! أنا السياسي اعترفت، اما هو فلم يعترف حفاظاً على قناعاته وسلوكياته ، ولله في خلقه شؤون ، لقد علمني التدخين بهذه السرعة ، آمل ان لا يعلمني شيئاً آخر .

صِرنا نلتقي في المقهى ونلعب الزهر ، كان ذكياً ، لم استطع التغلب عليه يوماً ، مضت الإيام طويلة ، وبينما كنا نحضّر طعام الغداء سمعت صوتاً جهورياً يقول : على الجميع الانتباه ، على كل من يسمع اسمه أن يأتي بأغراضه نحو الباب . اصخنا السمع ، تليت اسماء عشرين سجيناً سياسياً كنت من بينهم ، فتحت الأقفال وسادت حالة من الهرج والمرج ، خرج السجناء مودعين المفرج عنهم ، هكذا قالوا ، لم أصدق ذلك ، سرت في الساحة وحيداً ، فاذا بهشام يأتيني معانقاً ، قال: سيأخذونكم الى دائرة المخابرات ، سيحققون معك قليلاً ، لكنهم سيفرجون عنك ، تنبه جيداً لكل ما يقولونه ، لا تدعهم ينتزعون منك كلمة واحدة بعد الآن ، إذا لم تتقيد بما أقوله ، أنت الخاسر .

دققوا في الأسماء جيداً ، صعدنا في باص دون أن يقيدوا أيدينا ، صعد الضابط وقال : لا نريد أن نقيدكم ، انتم ذاهبون إلى دائرة المخابرات وإن شاء الله ستكون الخاتمة خيراً .

- إن شاء الله . سمعت أصواتاً .

سكون وفرح يملأ الوجوه ، تفحصت وجهي فلم أهتد لعلامات مثلها ، لقد خرج هؤلاء مرفوعي الرؤس ، أما انا فلماذا أخرج ! ولماذا أبقى في السجن أصلاً ؟! كان مفترضاً أن يفرجوا عني من قبل ، الحمد

لله ، الحمد لله ، لقد تعلمت بعض الأشياء في السجن ، أنا الذي خضت هذه التجربة بنفسي ، ليس مهماً أن أخوضها بل المهم أن أتعلم منها، نعم لقد تعلمت ، ماذا تعلمت ؟! تعلمت معنى الانهيار امام المحقق ، لن أنهار ثانية ، ... وماذا أفعل إذا ما ضربوني ضرباً مبرحاً ؟! الضرب لا يرغمني على الاعتراف ، التعذيب النفسي أشد قسوة ، وإذا ما اخبروني أن أمي قد ماتت وربما ستموت فعلاً ؟! أمي ستموت في النهاية، المهم أن لا أموت أنا كما خططت اجهزة المخابرات ، ما زلت في ريعان شبابي ويجب ان ابني لنفسي مكانة بين الناس ، يجب أن لا أبقى في الحضيض ، لكن صمودي الآن لن يعيدني رفيقاً لهشام وهمام ، فلماذا أصمد ؟! لا أريد ان اسقط الى القاع ، لقد هويت عند سفح الجبل ، وسأحاول الصعود ثانية ، كل المرارة التي عشتها كانت تصب في اتجاه واحد ، لا خيار أمامي سوى الصعود ، ربما لن أصل الى القمة ، لا يهم ، لكني سأحاول ان اصل إليها ، انني مصمم على ذلك .

لم أراقب الطريق جيداً قبل أن يقف الباص امام البوابة ، اصطففنا على باب غرفة الامانات ، سَلّمنا عهدتنا من فلوس وساعات ووزعنا على الزنازين ، كان نصيبي هذه المرة في زنازين المبنى الجديد ، دخلتها وسجين آخر يُدعى طاهر ، لم تتح لي الفرصة من قبل للتعرف عليه ، كنت أراه من بعيد ، كان يسير احياناً مع هشام وهمّام ، رجل يقترب من الخمسين ، اشيب الشعر وقور ، شعرت بقربه مني كما لو كان يعرفني منذ زمن ، كما لو كنا جلسنا معاً وتحدثنا ، لم أشعر بأنه يحمل شيئاً ضدي ، لقد اعتقدت أنه سيضع حاجزاً بيني وبينه، لكنه لم يفعل ، كنا نرفع السرير العلوي ونجلس على السفلي ، لم أشعر برهبة هذه الزنازين ، كنت أخافها حين اعتقلت ، حين سألني المحقق مروان

إن كنت أرغب بالانتقال إلى الزنازين الجدد ، رفضت ، منظرها من بعيد كان مخيفاً ، القضبان الحديدية السوداء والمراقبة المستمرة من قبل الحرس اخافني ، لكن ما وجدته كان شيئاً آخر ، انها اكثر نظافة واكثر حركة ، نستطيع سماع صوت التلفاز أحياناً ، نشاهد المارة قرب غرفة الامانات والحمام ، يمر الحارس أمامنا فيشير بيده ان نصمت ، أهمس وزميلي همساً ، نطلب سجائر وندخن .

وجدت الحياة هنا سهلة جداً ولشد ما فاجأني أننا نستطيع رؤية السجناء في الزنازين المقابلة ، كلما أدار الحارس ظهره انظر نحوهم ، سمعت احدهم يتلو آيات من القرآن ، كان يحمل بين يديه مصحفاً ، أشار طاهر علي أن أنصت ، فاذا به يضع يديه على ركبتيه ويغمض عينيه كما لو كان يصلي ويقول : اسم زميلي ماجد ، أما أنا فطاهر ، من السجن جئنا وسيفرج عنا قريباً .

لم أصدق ما قاله ، ظننته في البداية أنه يتلو آيات من القرآن ، لكن الكلمات التي سمعتها كانت غير ذلك ، سألته : ماذا تفعل يا طاهر؟

- إننا نتحدث مع الزنازين الأخرى .

- أتتحدثون تلاوة !

- هذه هي الطريقة الملائمة للتحدث في هذه الزنازين ، أما في القسم الآخر فنتحدث بلغة الطرق .

عجبت لما قاله ، وددت أن أضحك ، لكني تعلمت كيف اخاطب الآخرين ، تعرفت على معظم الذين في الزنازين المجاورة ، كنا نتحدث عن آخر الأخبار في الخارج .

جاء الحارس ، وقف أمام باب الزنزانة ، وأشار بيده أن اتبعه ، استجمعت قواي وتبعته ، خرجنا من المبنى الجديد وصعدنا الى

الطابق الثالث في المبنى القديم ، أوقفني عند احدى الغرف وألقى التحية العسكرية وذهب ٠

ها هو الآن أمامي ، إنه مروان ، ذلك الرجل الذي أوقع بي ، التعذيب الجسدي لم يسقطني بينما كلمات مروان اطاحت بي ، استطاع استغلال وضعي الصعب ونجح ، تصورته في البداية يختلف عن سعيد وهزاع ، تصورته افضل منهما لكنه كان السبب في كل ما حدث لي ، يجب ان لا ابتسم له ، يجب ان لا أجيبه عن أي شيء يريده ، الإجابة ستكون مختصرة الى اقصى حد ، قال : تفضل بالدخول ، تعال يا رجل ٠

نهض عن مقعده خلف المكتب ومد يده مبسوطة نحوي ، أأسلم عليه ؟! فكرت ، ليس مهماً أن أفعل ذلك ، المهم ان لا ينزلق لساني ، المهم أن لا أضعف أمامه ، مددت يدي حتى لامست يده ثم سحبتها بسرعة ، قال : أهلاً وسهلاً ، أرى أن صحتك قد تحسنت في السجن !

- لقد كانت افضل قبل اعتقالي ٠
- اتقصد ان صحتك ساءت وانت عندنا ؟!
- نعم ٠

نهض عن مقعده مرة أخرى وقال محتداً : أراك غير ماجد الذي كنته !

تطلعت نحوه ، قربت جسدي نحو المكتب وقلت : أريد أن أعرف لماذا سجنتموني ٠

- هكذا كان ، ما الذي لا يعجبك ؟!
- لقد ألقيت بي في السجن ستة شهور بعد ان اخبرتني بأنني سأقضي أياماً ٠
- اسمع : هناك الكثيرون من يسجنون دون ان يفعلوا شيئاً ، هناك

محكومون بالاعدام لإنهم هرّبوا اسلحة لقتل وزراء ، لا نحاسب الناس فقط على ما فعلوه وانما على ما يودون فعله ، لقد قررتم اسقاط النظام ، لم تسقطوه ولن يسقط ، عقوبتك كانت مخففة بالنسبة لغيرك ، أشفقنا عليك وقررنا ان نجعلك توقع على إفادة مع أننا لم نكن بحاجة لأية معلومات منك ، لقد كان باستطاعتنا الحكم عليك بالسجن عشر سنوات دون ان ان تمكث هنا ثوان، انت لم تقدم لنا شيئاً ، نحن من وعدناك بالحرية ولكننا أردنا ان نؤدبك ٠

- وماذا تريدون الآن ؟
- نريد ان تنتبه لنفسك ٠
- اعرف نفسي جيداً ٠
- لماذا أخبرتهم عمّا حدث في التحقيق ؟
- يجب أن أخبرهم بكل شيء ، لقد كنت صادقاً معهم ٠
- من الذي اخبرته ؟
- كلهم ٠
- مَن بالتحديد ؟ هشام ؟!
- اخبرتهم جميعاً ، تحدثت أمام الجميع ٠

جلس ثانية مسنداً ظهره الى المقعد وقال : اسمع يا ماجد ، لقد كنت لطيفاً معك ، لقد رأيت مني المعاملة الحسنة ولم تر الجانب الآخر، يجب أن تعلم بأننا سنصل إليك حتى لو رجعت إلى بطن أمك ، لا تتصل بأحد ، لا تحاول زيارتهم في السجن ، انت ستظل تحت المراقبة، افعل أي شيء تريده إلا العمل السياسي ، سأوصي بالافراج عنك ، قم وانصرف ٠

- قبل ان انصرف اريد ان استرد كل ما صودر من بيتي أثناء اعتقالي ٠

- وما الذي صودر ٠

- كتب ، فلوس ، راديو ، ساعة واوراق ثبوتية ٠

- لست متأكداً من كل الأشياء التي سميتها ، نحن لسنا لصوصاً ، إذا كنا قد أخذنا شيئاً فستسترده إذا لم يكن مخالفاً لقانون الاقتناء ، على كل حال تستطيع ان تتقدم بطلب مكتوب بعد خروجك ، انصرف ٠

انصرفت دون ان أودعه ، قادني حارس إلى الزنزانة ، رجعت الى طاهر وحدثته ، لاحظ الفرح في عينيّ ، شعرت انني انتصرت في أولى المعارك بعد سقوطي ، لقد تعلمت من السجن ، تعلمت ، اقتربت وقبلت طاهر وفعل هو الآخر كذلك ، قال : حين أزور هشام سأخبره عنك ، المهم ان تظل صامداً ، لا تتراجع ، ان اكبر عقوبة عندهم هي السجن وهو ما تعرفت عليه ، لا تخف ٠

دعوه هو الآخر للتحقيق وعاد مبتسماً ، قال : سيفرجون عني ٠

- متى ؟

- غداً ، في العادة يفرجون عن السجناء عند الظهيرة ٠

شعرت بنشوة ، وددت ان اعيشها وحدي ، لم اشعر بضرورة التحدث مع طاهر وكلما فعل اشعر انه قطع علي تسلسل حلمي ، رأيت نفسي كنت قد ركبت سيارة جميلة تسير بسرعة نحو الشمس ، وقعت منها ، ارتطمت بالأرض ، اصبت بجراح عديدة ، وكسرت احدى رجليّ ، صرت لا أستطيع المشي ، غطى الغبار الأجواء التي حولي ، والسيارة ما زالت تسير ، كنت اراها تسير ، تلفت حولي فوجدت جثثاً عفنة تأكلها الديدان ، الوحوش تنقض عليها من كل جانب ، رأيت الوحوش تقترب مني ، تكشر عن انيابها وتقترب ، لم استطع تحمل الرائحة الكريهة ولم اود الاستسلام للوحوش ، حملت حجارة وقذفت بها ، هربت قليلاً

لكنها عادت ، قلت : لا يمكن أن أظل هكذا، لا يمكن معالجة جراحي وآلامها وأنا جالس هكذا ، نهضت ، رأيت السيارة ما زالت في طريقها وايدي تلوح لي ان الحق بها ، فتحت عينيّ عدة مرات فرأيت السيارة اكثر وضوحاً ، رأيت الأيدي تناديني ، حاولت المسير ، كانت رجلي تؤلمني ، ارتكزت على الأخرى وقفزت ، لحقت بي الوحوش ، قلت : لا يمكن ان اصلهم سيراً على قدم واحدة ، لا بد أن اطير ، لم اكن متأكداً من ذلك فالانهاك هدّني ، وجدت ملابسي قد تمزقت ، صرت اتكىء على القدم الأخرى ، وركضت ، حركت يديّ ، اسرعت ، اسرعت ، حركت يدي كما الطائر ، حركتها بسرعة ، ارفعهما عالياً ، واردهما ثانية الى جانبيّ ، تجمعت الثياب حول يديّ ، تحولت الى اجنحة ، شعرت بنفسي اطير ، ارتفعت عن الأرض وحملني الهواء ، صرت اقترب من العربة ، صرت اسمع اصوات الذين فيها ، كانوا ينادونني أن أُسرع ، فعلت ، أغمضت عينيّ وطرت عالياً ، امسكت بمؤخرة العربة ودموع الفرح تغسل جسدي ٠

مرت الساعات وأنا أضيف شيئاً جديداً اكثر جمالاً ورومانسية ، أحببت طاهر ، وددت ان ابقى هكذا ، لم يعد يهمني إن كنت سأخرج من السجن أو أعود إليه ، صار كل شيء بالنسبة لي اكثر بهجة ، لا أعرف كيف نمت لكني صحوت على صوت طاهر يقول : قم يا ماجد اقتربت ساعة الحرية ٠

كانت الساعة حوالي العاشرة حين وجدت نفسي في الشارع ، اوقف طاهر سيارة اجرة ، ودّعني وذهب ، سرت وحدي ، قررت ان اصل إلى الجبل الشمالي سيراً على الأقدام ، تعرفت على الشارع جيداً ، على البنايات والسيارات ، وددت ان اركض فعدلت عن ذلك ، فكرت في البيت

الذي سأذهب إليه ، أأذهب إلى بيت خالي ! لا ... لا ، لقد عاملني بقسوة وشكك في اخلاقي ، إذاً سأذهب الى بيت آخر ، أين سأذهب ! -قلت- لا يوجد بيت آخر ، وصلت الى مطعم ، شعرت بالجوع ، اشتريت فطيرة واكلتها ، اشتريت علبة عصير وشربتها، تفرجت على المحال التجارية ، ملابس ، احذية، ادوات منزلية ، كل شيء ، لم أصدق انهم اطلقوا سراحي، نظرت نحو قدميّ لاتحقق إن كنت اسير فعلاً ، رأيت بقايا شعارات كتبت بمناسبة إنعقاد القمة العربية ، عقدت القمة بعد اعتقالنا ، تذكرت ذلك ، اخبرني مروان قائلاً : لولا قرب انعقاد القمة لأجلنا اعتقالكم ، خشينا رغم معرفتنا بقلة عدد من تبقى منكم ان توزعوا بياناً فتنقل إذاعة مونت كارلو مثلاً خبره ويُصور الوضع على أنه غير مستقر في الوادي ، هؤلاء الصحفييون يبحثون عن أي شيء دون محاولة معرفة حجم تأثيره ، لقد رأيناك تتجول قرب قصر القمة قبل ثلاثة أيام من اعتقالكم ، اعتقدنا بأنك تحاول تفحص المنطقة ، وعرفنا بعدها انك كنت على موعد مع صديقة حسين .

تباً للقمة ، تباً لحسين وصديقته ، لو لم أعتقل لكنت الآن أعيش في الوطن بوضع غير الذي أنا فيه الآن ، وجدت نفسي اشير بيدي الى سيارة لتقف ، أردت ان اهرب من هذا الجبل اللعين .

في الطريق كانت الشوارع تمتلىء بالناس ، انهم الجماهير الذين طالما تكلمت عنهم ، هؤلاء هم الذين سيثورون ضد الحكومة في يوم ما ، ها هم يعبثون عن طريق التجول في السوق ، ها هم يحملون اكياساً بها طعام وشراب وثياب ، ها هو صوت فيروز يصدح : تذكرتك يا عليا وتذكرت عيونك . هذه هي محطة الباصات وسيارات الأجرة وأصوات تنادي : الجبل الشمالي ، الجنوبي ، الغربي ، الوادي ، النبع ،

سيارات تروح وتجيء ، هل يعرف كل هؤلاء قصتي ! هل يعرفون انني سجنت من اجلهم ! هل يعرفون بانني اعترفت ! قضية الاعتراف عند الكثيرين لا تعني شيئاً ، أنا الذي يتألم ، لن استطيع التحدث معهم في السياسة ، لو فعلت ذلك مع الناس لا يعرفونني لاشعرتهم بالرهبة ، عندها سيعتقدون بانني مجنون ، إذا لم يحاولوا منعي سيسمعونني حتى النهاية دون ان يبدوا اية ملاحظات ذات اهمية ، سيقولون : وكلها لله ، السياسة لا تطعم خبزاً ونحن نريد الخبز .

عند الجسر كانت الأتربة والغبار تختلط مع البضائع المعروضة ، احذية قديمة ، ثياب وصوت ابواق السيارات يعلو فوق كل صوت ، ها أنا اقترب من بيت خالي، وددت لو اذهب اولاً الى البيت الذي كنت اسكنه لاستطلع اخباره ، عدلت بسرعة عن هذه الفكرة اذ خشيت ان اجد صاحب البيت هناك فيطالبني بالأجرة ، شهران مرا قبل ان ينقل خالي الأثاث منه ، طلبت من السائق التوقف ، دفعت له اجرته لأجد نفسي مقابل المخفر وشرطي يقف على الباب، ظللت واقفاً أتأمله ، وددت لو يراني ، وددت لو ياتي رجال الأمن ليردّوني ، لقد كان هؤلاء يطاردونني هم الآخرين ، فحين جئت ازور خالي مرة وقفت في نفس هذا المكان ، ترددت في الصعود لان الوقت كان غير مناسب ، رجعت عبر الشارع المقابل ، مشيت متمهلاً وحين وصولي عند نهاية محطة وقوف السيارات كان رجال الأمن يراقبونني ، تظاهرت بانني لا اعيرهم انتباهي ، لاحقتني سيارتهم ، سبقوني تارة وسبقتهم اخرى ، سرت في شارع المدارس وظلوا يلاحقونني .. عند المفترق جعلتهم يتجاوزونني ، انتظرت حتى اختفوا وركضت مسرعاً بين الأزقة ، وصلت البيت وصرت من هناك اراقبهم ، تحولوا الى مجانين ، احضروا سيارات

أخرى وتمركزوا في عدة نقاط في الشارع ، ظلوا كذلك حتى المساء ، لم اعد ارتدي نفس الثياب لفترة طويلة ، هكذا كان منذ وصولي الوادي وقبل أن يكون لي نشاط سياسي فعلي ، لقد كنت اخافهم اما الآن فلدي الاستعداد لمواجهتهم والتحدث معهم حتى في السياسة ، رأيت نفس السيارة التي اعرفها تقترب ، توقفت عند باب المخفر ودخل الشاب الأسمر الى البقالة ، لحقت به ، اندفع صاحب البقالة يُسلم علي ويهنئني بالسلامة فاذا بالشاب الأسمر يقول : أأنت ماجد ! .

- كيف عرفتني ؟
- بعد ان سجنت ، اخبرني خالك ، كيف وجدت السجن ؟
- مثل كل الأماكن التي تزورها اول مرة .
- أليست الحياة خارج السجن أفضل !
- لا ... لا اعتقد .

لم يرق له جوابي ولم ترق له نظراتي ، عاد مُسرعاً نحو المخفر ، لقد هزمته ، أنا الذي سيطارده ، لم أعد أخشاه ، الأمور وضحت لي ولهم، حملت ثيابي وصعدت الدرجات ، وددت لو استريح عليها قبل الدخول ، لكنني سمعت صوتاً خلف الباب ، نهضت وطرقت الباب .

- مَن ! ماجد ! صَرخت زوجة خالي. رفعت يديها معانقة إياي بعيون باكية .

لم اشعر بالفرح ، ابتعلت دمعة كادت تقفز من عيني ، تلفتُ في اركان البيت، المطبخ ، الصالون ، الصالة ، كل شيء كما هو . دعتني الى الجلوس ، جلست ، قالت : لماذا لا تتكلم ؟

- لا أعرف ماذا أقول ، هل تقبلون بي ضيفاً عندكم حتى أجد مكاناً آخر.
- ماذا تقول يا مجنون ! أين ستذهب ! ألست في بيت خالك ! اسمع يا

ابني : لقد كنا نقول ونفعل كل ما سمعته ورأيته من اجلك ، من اجل حريتك ، أنت ابننا فكيف نتخلى عنك ! سيأتي خالك بعد قليل ، قم واستحم .

حملت ثيابي وقبل ان ادخل الحمام قالت : استعمل ملابسك التي في الحقيبة والق بكل ما تلبسه وتحمله الى سلة الغسيل .

- لا أريد ان تجهدوا انفسكم لاجلي . قلت بخجل .
- انت في بيتك الآن ، لا تشعر انك غريب ، شدة وزالت إن شاء الله .

جاء خالي ، سلمت عليه وجلسنا ، جاء الاقارب يهنئوني بالسلامة وسهرنا معاً ، تشابكت الأحاديث دون ان اشعر برغبة في التدخل فيها .

- لقد انضممنا للثورة وخربت بيوتنا ، دافعنا عنهم واسكناهم بيوتنا بين أولادنا وبناتنا وفي النهاية تركونا وحدنا .
- هذا النظام لا يفلت منه أحد ، انظر كم عدد المواطنين الذين لا يملكون جوازات سفر ، إن لم تطلبك المخابرات وقعت بايدي الشرطة ، وإن لم تقع بايدي الشرطة وقعت تحت سلطة البلدية ، وما يحز في نفسي أن الاذاعة أصبحت سلطة هي الأخرى بتعاون الناس معها ، النظام لا ينام ولا يدع احداً ينام .
- نحن لا نستطيع مواجهتهم ، يقول المثل : بوس الكلب من فمه حتى تأخذ حاجتك منه .
- يا رجل : لا تدع أحداً يسمعك وإلا دخلت السجن بدل ماجد ، الحيطان لها آذان .
- وماذا جنى ماجد من السياسة ! على نفسها جنت براقش .
- يجب أن تفهم في السياسة ولكن دون أن تحترفها ، هل نفهم نحن مثل القيادات ! نحن نوافق على ما يقولونه ، وفي نفس الوقت نبحث

عن لقمة عيشنا .

- مشكلتنا ليس لها حل ، لقد قررت المجيء إلى هنا لإن المثل يقول : القرش عند تزاحم الأقدام .

- مشكلتنا ستحل عندما نصبح يداً واحدة ، لا نريد أحزاباً ، نريد المنظمة فقط ، لو وافقت كل الدول العربية على الحرب لدمرنا اسرائيل ولكن كل زعيم يتمسك بكرسيه .

- وما العمل ؟

- ننتظر الفرج من عند الله .

ماذا أقول لهم ! لقد قال لي هشام يوماً وأنا في السجن بانني استطيع أن ادفع المجتمع للأمام من خلال قناعاتي ورؤيتي العامة للأمور الاجتماعية وغيرها ، بالمشاركة في النقاشات التي تجري حولي، فها هو النقاش يجري حولي ، ماذا أقول لهم ؟ إن لدي الكثير لأقوله لكنني لا استطيع فعل ذلك ، إن لدي الكثير من الافكار للرد على تساؤلاتهم ، انني استطيع نسف الأسس التي يستندون إليها ، لكن جدار ما يقف أمامي ، جدار ما يمنعني من المشاركة ، ماذا أفعل ! الصمت أضعف الايمان ، لقد أتخذت قراراً بعدم التدخل ، لا ... لا ، إنه ليس قراراً ، بل هناك شيء يمنعني من التفوه بأية كلمة ، فحين قلت لهشام بانني أتفهم الوضع السياسي أفضل من المحكومين في هذا السجن ، قال بأن المشكلة ليست هنا بل في الكفاحية التي افتقدها ، الكلمة اعلان موقف ، الكلمة هي في النهاية هي احدى اشكال النضال ، النضال بحاجة لكفاحية ، وقد اخبرني هشام بانني افتقدتها ، انني أعرف في قرارة نفسي بانني لم أفتقد الكفاحية بل إنها بُترت ، وها أنا لا أقوى على التحدث في ما طرح ، إنني لست بحاجة للبدء من هنا فكل الناس

يتكلمون ، أريد أن أبرهن لهشام وهمام باني لم افتقد كفاحيتي ، لن أثبت ذلك من خلال مثل هذا الحديث الذي جرى ، لقد كان حجم الخطأ الذي ارتكبته كبيراً وأريد أن أرد عليه بنفس الحجم ، قال لي هشام استكمالاً لحديثه :

لقد كانت صفحتك بيضاء فقمت ودنستها بنقطة سوداء كبيرة في وسطها ، إذا كنت مناضلاً حقاً امحها ،إزل آثارها . سأمحوها ، سأزيل آثارها ، تدخلي في هذه الفترة في الاحاديث لن يزيل شيئاً منها ، يجب أن أبحث عن ممحاة ملائمة اصنعها بيدي لإزالة هذا السواد من وسط الصفحة ، هذا هو الاختبار ، إما أن أبقى في القاع وإما أن أصعد كما صعدت من قبل ، مثلي لا يرضى سوى الصعود ، الصعود صعب هذه المرة ، لكنه الخيار الوحيد أمامي حتى أعود إنساناً، ها هم أقاربي يحسون بذلك ، لقد قالوا : «على نفسها جنت براقش» ، لقد كنت ماجد غير الذي يرونه الآن أمامهم ، ها هم ينهضون ، وها هي زوجة خالي تقول : تصبح على خير . هل أصبح على خير فعلاً ! لقد اعادوني إلى بيتهم بكل سهولة ، نفس البيت الذي دخلته قبل اعتقالي ، خشوني على أمان بيتهم لكنهم استقبلوني فيه ثانية .

أمسكت سيجارة وأشعلتها ، درت في الغرفة من نافذة إلى أخرى ، قلّت حركة السيارات شيئاً فشيئاً ، سمعت صوت رجال الشرطة يأتي من خلف البناية ، نظرت نحو السجن فلم استطع ، البنايات كانت تمنعني، تمنيت لو استطيع رؤيته ، لقد غادرتك يا سجن الوادي ، غادرتك وأنا مهزوم في نفسي ، فكيف سألقاك مرة أخرى منتصراً ، سموك مركز الاصلاح ، أرادوك مركزاً في خدمة الحكومة ، المواطن الصالح بالنسبة لهم هو المخلص للدولة ، لكن المركز هذا أصلحني بشكل معاكس ، لقد

ايقظني على حجم الخطيئة التي ارتكبت ، لن أفعل مثلها مرة أخرى ، سأمحوها ... ، سأمحوها ... ، معظم الرفاق الآن نائمون ، هشام الآن يسهر مع رفيق يقرأ كتاباً ويناقشه ، لقد كان يسهر كل ليلة مع رفيق ، إنه لا يكل ولا يلين ، كلما قال شيئاً اجتذب الرفاق ، كلما ضحك ، ضحك معه الجميع ، وإذا غضب صمت الجميع ، الكل يحترمه ويخشاه ، مع أنه الاصغر حجماً والأضعف بنية ، هشام هذا الذي هاجمه همام قبل أن يسجن بحجة أنه اعترف ينال ثقة الجميع ، لقد تهجم عليه همام لانه اعتقد أن مجرد الحديث مع المحقق اعتراف ، أما همام فلم يتفوه بكلمة مطلقاً ، بقي صامتاً ، هكذا قال كل من في السجن ، اعترف جميع السجناء ببطولته لكنهم لم ينفوا البطولة عن هشام ، كل يحقق بطولته بطريقة مختلفة ، أما أنا فلم احقق لا هذه ولا تلك ، انني أقع في درجة أسفل من همام وهشام وعلى هذا يعاقبونني ، أنا بالنسبه لهم ساقط مع أن صالح وحتى طاهر لا يعتبرونني كذلك ، لقد صمدت اكثر من رفاقهم ، فهناك من يعترفون عن الكثيرين ورغم ذلك يتم التعامل معهم بصورة عادية ، جاء صالح بنفسه وعرض عليّ أن أنضم إليهم ، أرسل طاهر رفاقه وتحدثوا معي ، إنني مدان من وجهة نظر هشام وهمام ، ومن هذه الزاوية ينظر إلي الجميع ، لكني لست مداناً لو كنت في صف صالح أو طاهر ، مجاهد كذلك اعتبر الأمر شيئاً طبيعياً ، لماذا هكذا ؟ لماذا بليت بهذه العلاقة ! لقد بحثت عن شيء مميز وهذا هو الثمن .

نام الشارع ، لم يعد به صوت أسمعه ، وضعت رأسي على الوسادة ، حاولت أن أبعد شبح السجن عني فلم استطع ، السجن هو العلاج ، يجب أن أعود إليه ثانية ، كيف سأعود ؟! إنه ليس خياراً بل نتيجة

لشيء ما قد أقوم به ، لا أعرف إن كنت سأبقى في الوادي ، لن يسمحوا لي بالخروج ، لا أصدق ما قالوه ، لن أصدق ما سيقولونه ، لن أقع مرة أخرى ، قال والدي يوماً : العصفور الحذر يقع في الشرك الضيق . إذا وقعت لن استسلم ، سأظل أقاوم حتى أموت ، هكذا فعل رجب في رواية شرق المتوسط ، ها أنا احس بما قاله مظفر النواب في قصيدة براءة ، ليتني عرفتك يا مظفر ، ليتني قرأت قصيدتك قبل اعتقالي ، إن كلماتك ترن في أذنيّ ، انها تصمّها ، لقد عانيت وتشردت يا مظفر ، تراث النضال لكل الناس فلماذا لم اجعل تراثك جزءاً مني ! لقد كنت خارجاً واكتشفتك في السجن ، السجن .. السجن .. السجن ، تعال يا مظفر والق أبيات قصيدتك ، تعال يا مظفر واضربني بسيف كلماتك ، قلها ، أريد أن اسمعها ، لقد بت اطرب لوخز الإبر ، إن ابر الفراش الذي استلقي عليه اشد وخزاً ، تعال وسلط سهامك نحو جسدي ، دعني اسمع كلماتك، قلها يا مظفر ، قل ما لم تقله أمي ، انت الآن أبي وأمي ، قل واصرخ في اذني :

يا ابني قلعك من ركيته لظلعي جَبرته وبنيته
يا ابني خذني لعرظ صدرك واحسب الشيب اللي من عمرك جنيته
يا ابني طش العمى بعيني .
وجيتك بعين القلب ادبي على الدرب اللي مشيته .
شيلة العلاقة يا ابني
تذكر كتوفي بلعب عمرك عليهن
سنة وكفوفك وردتين على راسي
وبيك أناغي كل الفرح عمري اللي نسيته .
هاي أيام يفرزنها القحط أيام محنة

يا ابني يا وليدي البراءة تظل مدى الأيام عفنة .
يا ابني تدري بكل براءة كل شهيد من الشعب ينعاد دفنه .
وخلي ايدك على شيبي
واحلف بطاهر حليبي قطرة قطرة
وبنظر عيني اللي عميته
قلي ما ينهار ركني وانت امي وهذا حزبي
وحزب ابوي اللي ما لواني وما لويته
قلي ما أهدم حزب بايدي بنيته .

قررت ان اواجه ولم أجد شيئاً اواجهه ، أنا الآن بدون عمل وبدون وجهة اتوجه إليها ، اخرج في الصباح واعود عند المساء او قبله بقليل ، قررت ان اسير على الأقدام ، قررت ان اعرف كل شارع ، ان ادخل كل زقاق ، وددت أن أقتل النهار في انتظار لا شيء ، اجد نفسي وقد وصلت الى الجسر ومن هناك الى الميدان ، كنت اقف احياناً اراقب رجل الشرطة وهو يلوح بيديه على مفترق الطرق ، كان يطفىء اشارة المرور ويحل مكانها ، بيديه تارة وبرأسه تارة ثانية وبجسده ثالثة وبرجله رابعة ، وبكلها معاً أحياناً أخرى ، لم يكن جسده كله يتوقف عن الحركة ، كنت اراه يجلس على الأرض بركبته وينادي على السيارات ان تمر ، يقف ثانية ويحرك يديه بينما يسير الى الوراء ، كل الناس تحييه فيرد التحية ، رد التحية كان جزءاً من مناداته لسائقي السيارات بأن يتحركوا او ينتظروا قليلاً ، كانوا يخضعون لاشاراته ، يتناسون "التكنولوجيا" ويتبعون الحرفية ، كان بالفعل محترفاً وينال إعجاب الناس ، هو يجد متعة في ذلك وهم يعتبرونه بطلاً ، تذكرت نقاشاً جرى بين أطباء عرب وأجانب ، الاطباء الاجانب استطاعوا ان يخترعوا جهازاً يقوم بعمليات دقيقة في العين والاذن ، عارض الاطباء العرب ذلك بحجة انهم لا يجدون متعتهم حين استخدامها ، يريدون ان يفعلوا ذلك بايديهم ، حاججهم الأطباء الاجانب بأن المتعة تكون باعطاء معلومات اكثر دقة لصانعي الآلات لتطويرها لكن العرب لم يقتنعوا ، حزنت على هؤلاء ، لكن ما العمل إذا كانت طبيعة مجتمعنا كذلك ، راقبت سائقي السيارات والشرطي طويلاً ، كل الناس تسعى من أجل مصادقته ، لم اسمع شتيمة يقذفونها عليه ، كنت أنا الآخر أتيه في حركات يديه وجسده ما دام ليس هناك شيء أفعله ، الوقت ليس مهماً بالنسبة لي ، كلما شعرت بالتعب أجد ان ساعات ما زالت تفصلني عن الليل ، تنتهي مدة بقاء الشرطي هناك فانطلق نحو الميدان ، أحاول أن اسير بطيئاً فأجد خطواتي تتباعد لتطأ شارع الحرية ، اشتري جريدة وأقرأها ، اجلس على حافة الطريق ، فلم تعد المراقبة تهمني ، الناس يمرون من امامي ، يعجبون لجلستي وأنا أقرأها ، اقرأ كل كلمة فيها دون ان اشعر بأي تفاعل بيني وبين اخبارها ، اريد ان اعرف ماذا يحدث في هذا العالم حتى لو لم أتذكره في اليوم التالي ، اريد ان اقتل الوقت الذي لا أعرف كيف سيموت ، إن لم اقتله قتلني ، اصعد على سُلم مقهى فوق السطح وأجلس في اية زاوية اراها مناسبة واعيد قراءتها، اعرف ان ذاك الرجل تبدو عليه علامات رجل المخابرات لكنه لا يهمني ، ليذهب ويخبر اسياده انني قرأت الجريدة اليوم ، إذا واجهوني بهذه المعلومات فلن يغيّر شيئاً بالنسبة لي ، ما كان بالأمس لا ينطبق على ما يحدث اليوم .

رأيت احدهم يُخرج شيئاً صغيراً من جيبه ، تطلع فيه ثم تطلع نحوي ، عرفت انه يتفحص صورة بين يديه ، ازحت الجريدة جانباً

وظللت احدق فيه، حدّق فيّ هو الآخر وابتسم ، سألته : ماذا تريد مني ؟

- لا شيء ، أردت فقط ان اتحقق منك ٠
- وهل تحققت ؟
- نعم ٠

قلت في نفسي : ما دامت الأمور هكذا سأعذبهم ، سأجعلهم يقضون وقتهم دون فائدة ، فأنا الآن لا أفعل شيئاً ٠ صِرت احمل الجريدة في يدي وأنزل الدرجات وأقف في زاوية ما في انتظارهم ، اجدهم ورائي بعد ثوان ، احاول ان اوهمهم انني سأفعل شيئاً دون مراقبتهم ، اركض في الشارع قليلاً ، انغمس بين الجمهور المكتظ ، أدخل مقهى ، أطلب قهوة واشربها، تمر دقائق فاذا بهم يأتون ، اخرج وانسل لاحدى المحلات التجارية فاذا بهم يأتون مسرعين، يلتفتون في كل ناحية للبحث عني ، يجدونني فابتسم ، ادخل زقاقاً متلفتاً ورائي بين لحظة وأخرى ، اسير بشكل بطيء هذه المرة ثم اسرع في زقاق آخر واجلس في انتظارهم ، تتبدل الوجوه وأبدل اشكال اللعبة ، دخلت مرة زقاقاً وخلعت معطفي الذي كنت ارتديه وعدت في الاتجاه المعاكس ، تجاوزوني بضعة امتار ثم رجعوا ، وجدتها لعبة شائقة لكنها متعبة في نفس الوقت ، لم يعودوا يهمونني ولم اعد أهمهم كثيراً ، تهت في الجبال كلها ، سِرت في الجبل الغربي وجبل النبع والجبل الشمالي والشرقي والجنوبي ، رحت أزور كل البيوت التي كنت انام فيها ، وقفت على أطلالها وحججت إليها ٠

في هذا البيت استولى رجال المخابرات على الجهاز الفني ، نقلناه هنا بعد اعتقال هشام لكنه كان مأوىً لهمّام ، حين اجرته تكلمت بود مع صاحب البيت ، قال : نحن لا نسمح في العادة لعزاب ان يسكنوا هنا، لكن يبدو انك شاب طيب ، نأمل ان يكون صديقك مثلك ، كنا ننزل درجات طويلة حتى نصل الى الطابق الأرضي ، كانت الفتيات يجلسن على الدرجات وشرفات الطوابق الأربعة وإذا شاهدن احد ما انسللن الى الداخل ، لم نكن نعيرهن اهتماما ، مرت الأيام ولم يعد مرورنا يفزعهن ، حاولت فتاة مرة ان تندفع الى الداخل فسمعت صوتاً يقول : لا تذهبي ، هؤلاء لا ينظرون نحونا ، هؤلاء مؤدبون ٠ سُررنا لسماع هذه الكلمات فهم لن يجبرونا للبحث عن بيت آخر ٠

جئت وهمام ظهيرة يوم الى البيت ، سمعنا صوتاً من بعيد يقول : اهربوا ٠ وقفنا لنتأكد انهم يقصدوننا ، اشرت بيدي مستفسراً ، قالت إمرأة : اهربوا ، مخابرات ٠ هربنا في ازقة كثيرة ، وصلنا إلى ناحية المشفى ومن هناك ركبنا سيارة الى المخيم وعدنا عبر الأزقة حتى وصلنا بيتاً آخر في منتصف المسافة بينهما ٠

زرت في يوم آخر بيت في جبل النبع ، وقفت امام بقالة صاحب البيت، اشتريت علبة سجائر ، التفت نحوي وقال مُرحباً : اهلاً أسعد ٠

- اسمي الحقيقي ماجد ٠ وابتسمت ٠
- ماذا تقول يا رجل ، ما زلت احتفظ بعقد الإيجار ، اسمك اسعد ، ما اخبار عباس ؟
- اسمه همّام وهو الان في السجن ٠
- لماذا ؟
- قضية سياسية ٠
- سياسية ! يبدو انك ستجعلني احترمه ، كنت لا أحبه فهو الذي وشى بنا للجيران ٠
- لم يش بكم بل قال ما حدث فقط ، كانت هناك خلافات بينكم ، انتم

الذين القيتم بالبيض الفاسد على بيتهم ، وبما انه كان مطارداً ، فضل ان يقول الحقيقة وإلا تحمل نتائجها وحده .

- صدقني يا ابني اني غفرت له ، ولماذا انت خارج السجن اذا كنت انت الذي حميته ؟!

ضاعت مني الابتسامة ، حاولت ايجاد عذر دون فائدة ، رأيت نظراته تتغير ، قلت : لقد اعترفت يا عم ، اما همّام فصمد . قلتها وانسحبت خارجاً ادور في الأزقة الترابية ، صعدت نحو الجبل ، كانت الشوارع نظيفة والبيوت جديدة والحدائق جميلة ، توجهت عبر الشارع، توقفت بجانب حديقة اتفرج على نباتاتها وورودها ، فجأة توقفت على بعد حوالي خمسين متراً مني سيارة اجرة ، فاذا بشاب قصير القامة يترجل منها ، دققت النظر فيه فاذا به حسين ، عرفني هو الآخر ، فاذا به يصعد الى السيارة مسرعاً وتنطلق هي الأخرى ، أشرت بيدي ، صرخت ان يتوقف فلم يفعل ، هرب مني ، اذا هو عميل فعلاً ، لم يرد مواجهتي لكنه كشف نفسه ، فما دام قد وجدني في الخارج معناه انني اعترفت ، فلماذا هرب ، يبدو انه لا زال يعيش حالة نفسية سيئة ، كيف سينخرط مثل هذا الشاب في المجتمع ، ساورني الندم على ما فعلت ، فربما اعتقد انني جئت اقتله ، عندما سيخبر أسياده وسيكتشفون من مراقبتي وربما يستدعونني ، لقد اثبتُ فعلاً أنه كان المندّس في صفوفنا ، انا لست مثل حسين ، هو شيء وانا شيء آخر رغم انني لم اعد مثل همّام ، غريبون هؤلاء العملاء ، تعرف السلطة كل الاخبار من خلالهم ، العملاء احدى الادوات المهمة للسلطة ، اعتقلوا احد زعماء الاحزاب من خلال العملاء ، وصلتهم الأخبار بأن جماعته ذهبت لبلد آخر لاحضار الصواريخ من هناك لاسقاط طائرة الزعيم ،

فتشوا الثلاجة الشاحنة على الحدود فلم يجدوا شيئاً ، دعوها تدخل الحدود وظلوا يراقبونها ، شاهدوا اشخاصاً يفكون صفائحها ، انقضوا عليهم واكتشفوا الصواريخ ، حكموا عليه في النهاية بالسجن خمس سنوات وثلاث اعدامات . وحين القيت القنبلة على شركة مصر للطيران بعد زيارة السادات الى القدس عرفت المخابرات من الاخبار عن الجهة المسؤولة ، بحثوا في ملفاتهم فلم يجدوا احداً يعرفونه ، ارادوا الأمساك بطرف الخيط فلم يستطيعوا ، ارسلوا شاباً الى بيروت ، انضم لتلك الجهة وتدرب على السلاح ، طلب من مدربيه ان يرسلوه للقيام بعملية عسكرية ، ارسلوه عبر الوادي ليتسلم الاسلحة هناك ، في لحظة التسلم كان رجال المخابرات يطوقون المكان وامتدوا في النهاية لمنفذي العملية .

. . . .

حين عُدت يوماً الى بيت خالي ، جلست في الصالة متعباً ، قال خالي: الحمد لله على السلامة .

- سلمك الله ، سلامة من ؟

- الم تعرف ان والديك قد وصلا !

- اين هما ؟

- انهما في الداخل .

خطوت الى الداخل فوجدت امي وابي ، سلّمتُ عليهما ، قبلتهما دون ان اشعر بحرارة اللقاء ، كان اللقاء فاتراً ، فرغم ابتسامة ابي ودموع امي إلا انهما لم يُثيراني ، بدا عليهما الفرح ولكن الحزن نبض في كل عروقي ، جلست امامهما وهما ينظران نحوي ، كنت بالنسبة لهما كمن

رزقا بطفل جديد ، هكذا احسست ، همست امي في اذني إن كانت صحتي جيدة وان كنت بحاجة لشيء ، قالت : كنت اراك مبتسماً وانت في السجن ، لماذا انت هكذا ؟

لم اجد جواباً مناسباً ، ضاعت مني نفسي ، ضاعت مني حيويتي ، هزمت في معركة ومن يأتيني الآن يأتيني معزياً ، سأستطيع فقط مقابلة الناس وانا منتصر .

قررت ان اتقدم بطلب للحصول على الأغراض المصادرة ، أصرّ والدي على ان يرافقني ، عند التاسعة صباحاً كنت اقف على باب دائرة المخابرات ، اعطيته طلباً مكتوباً ، قرأه وتطلع فيّ ، قال : ما هذا الذي كتبته ؟!

- ماذا تقصد ؟

- انك تقول : "اثر مداهمة بيتي" ، وهل تداهم المخابرات بيوتاً ؟

- وإلا ماذا تسميها ؟

- اعتقال .

- ولكن ما حدث هو مداهمة .

- هل تُصر على هذه الكلمة .

- نعم .

- إذاً إذهب وسنهاتفك في الوقت المناسب ، إنصرف .

انتظرت يومين حتى هاتفني ، قال : يجب الحضور في تمام الساعة العاشرة .

اعتقدت انهم سيساومونني على شيء ما ، اعتقدت انهم سيطلبون مني اعترافات اخرى ، خفت ، ابديت تخوفي أمام الأقارب ، كدت اعدل عن فكرة المطالبة باغراضي لولا تدّخل والدي واصر على مرافقتي

ثانية . ذهبنا هناك كما حددّوا ، مكثت هناك قليلاً قبل ان ينادوني ، جاء حارس واصطحبنا الى الطابق الثالث ، دخلنا فوجدت محققاً شاباً تذكرته ، لقد كان مساعداً لمروان في كتابة الافادة ، كان اشبه بسكرتير عنده ، استصغرته ، غضبت ايضاً ، وجدت ان هذه الخطوة هي حلقة من محاولات أهانتي والتي سيبدأون ممارستها معي ، كدت أسأله عن المحقق ، لكني عدلت ، دخلت وجلست دون ان انتظر إشارته ، لكنه حاول ان يكيل الأهانات لي هو الآخر ، اراد ان يشعرني بقوته ، ظل جالساً ، لم يحترمني ولم يحترم والدي ، امسك سيجارة وضعها بين شفتيه ، اشعلها وتطلع نحوي بشكل جانبي ، مرت لحظات فاذا به يقول : لماذا احضرت اباك ؟!

- هو الذي قرر الحضور .

- انت الذي احضرته .

- اسمع (قلتها بتحد وبصوت عالٍ) : لديكم قوانينكم الداخلية ، كان بامكانكم منعه وبامكانكم طرده .

- لا ترفع صوتك ، فنحن ادخلناه احتراماً لكبر سنه .

- افعلوا ما ترونه مناسباً ، هذا لا يهمني ، اريد اغراضي .

دخل محقق آخر مسرعاً ، كان يتجاوز الأربعين ، يبدو انه سمع ما قلته ، يبدو انه لاحظ استصغاري له ، اشار لوالدي أن يخرج ووقف قبالتي ، وقال : ما اسم عشيقة حسين ؟

- لا أعرفها .

- لقد كنت مراسلاً بينها وحسين اثناء اختفائه .

- لا اعرفها .

- انت الذي تعرفها وهي تدرس في الجامعة .

- لا اعرف ، إذهبوا وأسالوه ٠

- اسمع ما أقوله جيداً : بالفعل حسين يعمل معنا كما يعتقد اصدقاؤك في السجن، اشربوا البحر ، اما انت فلن نتهاون معك مطلقاً في أية قضية مهما صغرت ، السجن جاهز لك في اي وقت ، لن نحكمك عشر سنين هذه المرة بل ستقضي حياتك كلها في السجن ٠

- ليس لي علاقة بالعمل السياسي ٠

- ماذا تريد ؟

- اريد اغراضي ٠

- ليس لك كل الأغراض التي طلبتها ، ولا توجد عندنا اغراض اخرى ، الفلوس مصادرة باعتبارها فلوس الحزب ، لم يأخذ احد منا ساعة ولا آلة تسجيل ولا غيره ٠ كل ما أخذناه هو بعض وثائقك ٠

- الفلوس التي وجدتموها هي ملكي الخاص ، وكل الادوات الكهربائيةوالالكترونية لم اجدها ، مَن أخذها ؟!

- نحن لسنا لصوصاً ، لا تجرؤ يا كلب على تكرار ذلك، لا بد من ان اقاربك سرقوها ٠ هذه هي بعض وثائقك اما جواز السفر فلن تأخذه إلا إذا وافقنا على خروجك من هذه البلاد ، قم وانصرف ٠

اخذتها وانصرفت ، لم ارغب ببقاء والديّ ضيوفاً ، يكفي خالي وجودي ، رجوتهما ان يعودا الى الوطن ، فعادا بعد ان اوصياني بأن اهتم بنفسي ، وان احاول الحصول على جواز السفر او البحث عن عمل ، ذهبا وبقيت وحدي تائهاً ، قرفت كل هذه الحياة ، لم تعد بي رغبة في عمل شيء مطلقاً ، درت في الأزقة والشوارع دون هدف ، حياتي كانت مُملة ورتيبة بينما النار تشتعل في داخلي ، هل أنا الوحيد الذي يعيش هذا النوع من الحياة ! كيف اهتدي لامثالي لاتعرف عليهم ! هل هجروا

حياة السياسة فعلاً ! هل استطاعوا ذلك ! إن هجروها فعلاً فقد استسلموا لما ارادته المخابرات ، المسألة بالنسبة لي ليس قراراً ، فاذا قررت ان اهجرها فلن استطيع ذلك الآن ، المسألة ليس تحدياً فقط بل إنها عدم استطاعتي الانفصال عن ذاتي ، هذه الذات التي قتلتني ، لو استطعت ان اهرب منها وان ابحث عن ذات جديدة لفعلت ، لو استطعت ان اكون شيئاً جديداً منفصلاً عن الماضي والحاضر لكنته، المشكلة هي ان ذاتي هي ذاتي التي اعيشها الآن ، المشكلة في الذات ذاتها، فالذات هي التي دفعتني للانتظام ، اكتشفت ان هناك عالماً لا اعرفه ، اكتشفت ان الأمور تجري في الحياة وكنت مغمضاً عينيَ عنها ، اكتشفت انني لا اساوي شيئاً إذا كنت لا أقدم شيئاً للمجتمع ، وصلت لنتيجة وهي أن اكمال دراستي ليس اهم من النضال فانتظمت وجئت هنا بعدها ، والذات هي نفسها التي دفعتني للاعتراف ، اكتشفت ان عالم السياسة والعمل السري ليس هو كل شيء ، اكتشفت انني تركت دراستي واهلي واقاربي وحتى مشروع خطبتي ، عرفت ان هناك اشياء اخرى غير السياسة البحتة من حقي ان اعيشها ، اكتشفت ان الكثير من الأمور لم يكن لها مكان في التنظيم وكانت تبرر بابسط الكلمات وأقساها مثل : رجعي ، متخلف ، زئبقي ، تسلقي وغيرها كثير ، اكتشفت بانني لا يمكن ان اكون مناضلاً ومنعزلاً عن المجتمع في نفس الوقت ، يجب ان اجمع بينهما، لقد قاسيت من اجل هدف بعيد عن الجمهور ، اخبروني بان امي ستموت وخفت على ريم ان تخطب واصبت بالاحباط لكني لم استطع تجنب الاعتقال ، لكل ذلك اعترفت ، وهذه الذات نفسها هي التي تدفعني للمواجهة ، ادرك جيداً بأن ما قمت به كان خطأً رغم ان السبب ليس فيّ انا وحدي ، لن اقبل بأن أعيش في القاع ، لا أقبل ان اكون ذليلاً لا عند

الحزب ولا عند الأهل ولا عند النظام ، لهذا يجب ان اعمل ٠

لقد اوقعني الطلبة في وهم ان الانتصار سيكون قريباً ، واننا كشعب فلسطين لا يفيدنا الآن ان نقضي سنوات في التجارة او التعلم ، تعلمت منهم ان التحدي والمواجهة هي كل شيء من أجل اثبات الذات والانتصار ، التحدي هو صانع التاريخ ، وظيفتنا ان نصنع التحدي ونقوم به فعلاً ، كل دقيقة نضيعها في شيء آخر تضيع من عمر شعبنا وقضيتنا ، قالوا الكثير ، كنت بالوناً يسهل نفخه ، نفخت حتى صرت اكبر منهم ، صِرت أنا الذي يعيد هذه العبارات وغيرها بشكل أكثر عمقاً ، صِرت منظراً يأخذونني لالقي محاضرات امام الطلبة ، وحين جاءت رسالة من القيادة تحمل اسمي وتدعوني للذهاب الى الوادي ، كبرت اكثر ، شعرت بأنني سأكون المنقذ للوضع ، شعرت بأن الثورة ستقوم على اكتافي ، حملت كل مشاعر الثائر وذهبت ، قلت يومها لأحد الرفاق : سنة إن شاء الله وسيتغير الوضع في الوادي ٠ يومها ضحك وقال : لا تكن متفائلاً لهذه الدرجة ، نحن في أول الطريق ، لكن كل شيء ممكن ٠ حاولت ان انسى كلمات الاحباط التي قالها ، لكنني اليوم اكتشفتها ، المعركة طويلة وطويلة جداً ، إنها معركة الحياة ، يجب ان اعيش الحياة ، وحتى اعيشها يجب ان اكون محترماً لنفسي وللشعب وقضيته ٠

سِرت في الشارع أدقق النظر في الناس ، صِرت احدد من الذي رأيته بالأمس وأول أمس ، تنبهت لأحدهم يحلق فيّ ، يلبس بدلة سوداء لا يُبدلها ، أوقفني مرة بعد ان القى التحية وطلب سيجارة ، سار بجانبي ، انهى سيجارته وطلب أخرى ، دققت فيه فاذا به لا يلبس قميصاً ، يلبس معطفاً عل جسده مباشرة وحذاء بدون جرابات ، سِرت معه في الأزقة

والشوارع ، جلسنا على المقاهي وكأننا نعرف بعضنا منذ مدة ، سألته : ماذا تعمل ؟

- كنت أعمل سائقاً ٠
- وماذا تعمل الآن ؟
- لا أعمل ٠
- لماذا ؟
- صادروا إجازة السياقة ٠
- كيف تعيش إذن ؟!
- كما ترى ، لقد مضت سنتان على هذا الحال ، يساعدني بعض الأقارب احياناً ٠
- هل كنت في السجن في يوم ما ؟
- كنت في زنازين المخابرات قبل هذه المدة ٠

لم أرد أن أسأله أكثر ، يكفي ما قاله ، إذا صرح السجناء باعترافاتهم فانهم ينزعون الثقة بينهم ، بل يحتقر كل منهم الآخر ، الأفضل أن ابقي على هذا الخيط من الثقة، يجب ان اجد احداً أكلمه ، توالت الأيام ونحن نلتقي صدفة في الشارع ونسير معاً حتى دون ان نلقي التحية، اشتري سجائراً وندخن ، وفي محاولة لكسر الصمت سألته مرة : هل انت متزوج ؟

لم أصدق أنه سينفجر في الحديث مرة واحدة ، لم اصدق كل هذه العواطف التي يحملها ، ظللت استمع لكلماته دون ان اقاطعه ، قال : هذه هي المشكلة الكبيرة التي لا أجد لها حلاً ، لقد فقدت كل شيء ، كنت اظن انها مأواي الأخير ، هي تحبني أيضاً ، اخوها في السجن ، قال لها : انفصلي عن عشيقك ٠ جاءت واخبرتني برأيه ٠ قالت : سأودعك الآن ولا

أريد ان أراك مرة اخرى . تهنا في القبلات واللمسات فترة طويلة ، خرجت من بيتها ، عُدت إليها في اليوم التالي ، قالت : أنا الآخرى لا أستطيع الانفصال عنك ، اخبرني اخي بأنني لم اعد ملائمة للارتباط بك ، قال بانه على استعداد لمناقشتي بصورة ديمقراطية . قال : الزواج مشاركة وتفاهم من موقع التكافؤ ، لا ارى ان هناك اساساً للتفاهم بينكما ، هو الآن في وادٍ وأنت في وادٍ آخر ، انت افضل منه ، لقد نشر اسمه في الجريدة ، لقد خان شعبه وقضيته ، انت لم تفعلي ذلك ، العواطف لا تكفي للزواج ، كثيراً ما تكون هذه العواطف مخالفة للمنطق وتعمل الغرائز على دفعها إلى المقدمة ، لا تُقادي من قبل غرائزك ، إنسيه. بكيت كثيراً وبكت هي الأخرى ، قبلتها وضعنا في التئام الأحبة، انا قانع بما يقوله اخوها ، لكننا لا نستطيع الانفصال ، ماذا أفعل ! ماذا أفعل !

استمعت لقصته وتركته يتيه في الشوارع مرة اخرى ، فَلَستُ أنا الذي يستطيع اجابته . ليبحث عن غيري ، لم اعد أرغب في رؤيته ، صِرت أدخل في زقاق كلما رأيته من بعيد ، جذب انتباهي رجل في الخمسين من العمر كما يبدو ، كان يسير قليلاً ويجلس في زاوية من الشارع ، كان كث الشعر ، ملتحٍ قميء ، لا أعرف لماذا خطف بصري ، قلت لنفسي : هذا الرجل يحمل قصة في داخله ، من المؤكد انه يحمل قصة سياسية وإلا ما معنى هذا الكم الهائل من الجرائد التي يحملها في جيوب معطفه الطويل وتحت إبطيه . جلست بجانبه ، تطلع نحوي فالقيت بسيجارة في حضنه ، كانت رائحته كريهة لكنني اصررت على البقاء ، كررت ذلك في الأيام التالية حتى عُدنا توأمين في جلستنا ، نُدخن معاً واتصفح الجريدة بينما يلهو هو بالنظر الى الأرض ، لم يكن

يتكلم ، لم اسمع صوته ، صِرت ابحث عن طريقة لمعرفة اخباره وقصته ، لم تفدني الإشارة إلى الناس الذين يمرون ، نهض مرة فسقطت احدى جرائده ، قرأت العنوان سريعاً يقول : حل البرلمان المنتخب وفرض الاحكام العرفية . امسكت بها فاذا به يتناولها مسرعاً ويذهب .

اين اذهب الآن ! لم اعد احتمل هذه الحياة ، ضقت بها وضاقت بي ، لا يمكن ان أتحول مثل هؤلاء الذين قابلتهم ، إن الانتحار افضل من حالتهم ، هل انتحر كما اشار هشام مرة عن احدهم ! ملّتني الشوارع ومللتها ، انا الآن في سجن لا اعرف كيف أخرج منه ، رأسي يكاد ينفجر بهذه الأفكار المتناقضة والتي لا تجد متنفساً ، اشعر بالانهاك وباحمرار أذنيّ بشكل دائم ، لا أجد للابتسامة طريقاً تعبره ولست بقادر على عمل شيء ، دُرت في الأزقة والجبال لأجد نفسي قرب المشفى ، دخلت ساحته وجلست ، اناس يدخلون وأناس يخرجون ، شعرت انني مريض أنا الآخر ، ماذا لو قابلت الطبيب النفساني ! أطرح عليه قضيتي وسيعالجني ، نهضت وسألت عن عيادته ، سجلت اسمي وجلست انتظر دوري ، ظللت في "العيادة" فترة طويلة انتظر ان ينتهي من زبائنه ، دخلت فأجلسني على مقعد مريح جداً ، قال : ما المشكلة ؟

- اتسمح لي باشعال سيجارة ؟
- طبعاً ، طبعاً . أجاب .

أشعلتها وسردت له قصتي ، قلت له كل شيء ، كان في البداية يسجل ملاحظات لكنه توقف وظل يستمع ، اخبرته بالتفصيل وحين انتهيت سألته : ما العمل يا دكتور ؟

مسح جبينه لحظة ، نهض من مقعده ، وضع يده على كتفي وقال : يبدو ان المشكلة كبيرة وبحاجة الى تغيير اجتماعي واسع ، اما انت

وبما انك تعرف مشكلتك بالضبط وتعرف سببها فان ذلك نصف العلاج ، اما النصف الآخر فلا استطيع اكماله معك ، تستطيع وحدك معالجة نفسك ، إذهب وعالج نفسك بنفسك ، لن تفيدك كل المهدئات التي سأوصي بها ، لا أعرف عن طبيعة العمل السياسي وبالتفاصيل التي ذكرت ، أنت مارست العمل السياسي ، إذاً فأنت طبيب نفسك ٠

انا طبيب نفسي ، يجب ان ابحث عن العلاج ، هكذا قال الطبيب ، أدرك ان العلاج يكون بالمواجهة لكني لا استطيع تحديد موعدها ، الأمر لا يحتمل اي تقاعس ، هناك من لا ينظر الى داخله دوماً فيجد بعد سنوات انه بنى إنساناً لم يخطط له ، لا أستطيع فعل ذلك الآن ، لقد فاتت فرصتي ، لو كنت مجنوناً لكان الأمر أشد بساطة ، حينها سيتطلع كل من يمر حولي نحوي ويقول : هذا مجنون ٠ لو اصبت بالجنون في هذا الوقت بالذات لقالوا : السبب النظام ومخابراته ٠ لو قتلوني في الزنازين لمت شهيداً امام كل الناس والعالم ، هم لم يردوا إماتة جسدي وإلا لما احضروا الماء والملح لاضع فيه رجليّ بعد التعذيب ، ارادوا قتل روحي ، ما زال في هذه الروح نواة للتمرد ، يجب ان اعمل على تنميتها، لو كنت اهبل وساذجاً لما كنت عضواً حزبياً في يوم ما ولما واجهت كل ما واجهته ، لو لم اقبل المجيء إلى الوادي فلربما فصلت من الحزب او جُمدت او حتى لم أرتق للمستوى الذي وصلت إليه ، لو حدث كل ذلك لما وقعت في المصيدة أيضاً ، لم يرد الرفاق ايقاعي فيها لكني في النهاية وقعت ، لو لم اجيء إلى هذا العالم أصلاً لما حدث كل ما رأيته ، كل هذا لا يفيد الآن ، يجب أن أعترف بالواقع الذي أعيشه ومنه بالذات أبدأ حياتي ، أنا لست حقيراً رغم حقارة الوضع الذي اعيشه ، انا لست خائناً رغم ان ما فعلته يُعد خطوة خيانية، انا لست نذلاً رغم ان ما قمت به

نذالة ، انا طيّب ، بسيط ، محب ، هؤلاء الرفاق لا يعرفون هذه الصفات ، هم يعرفون فقط تجربتي معهم ولا يعرفون حياتي بالكامل ، انا اكثر دراية بها ، الخطأ الذي وقعت فيه لم يكن خطأي بالكامل ، لقد كان خطأهم أيضاً ، لقد قال الطبيب النفسي : يبدو ان المشكلة كبيرة وبحاجة الى تغيير اجتماعي واسع ٠ نعم ، صحيح ما قاله الطبيب ، بل اكثر مما قاله، لقد انتميت لاكثر الاحزاب سرية ، جئت هنا لا أعرف احداً ولا أحدٌ يعرفني ، في النهاية امسكوا بي ، معظم ابناء الحركة الوطنية معروفون للدولة واجهزتها ، لقد حاولت السلطة قطع الاغصان من حول الحركة الوطنية ، حاولت عزلها عن الشارع، ان اكبر تنظيم هو منظمة المخابرات باعتراف ابناء الحركة الوطنية انفسهم ، بالهجوم التي تقوم بها المخابرات وبكل الطرق على الحركة الوطنية استطاعت ليس فقط الحد من انتشارها بين الجماهير وإنما عزل من لم تستطع النيل منهم عبر التضييق على كل من له علاقة بهم، لذلك لم تستطع الحركة الوطنية ككل الخروج من المأزق ، بل ربما وبدون قصد من اطرافها ، ترى الهجوم والهجوم المتبادل امتداداً كما يحدث في بقية الساحات ، كل يحاول تقوية نفسه فيضطر الى استخدام اساليب انتهازية ، يكفي ان تتهم وتتهجم على كل القوى الأخرى حتى تجتذب عنصراً نحوك ، استطاعت المخابرات استغلال ذلك فهاجمت كل القوى معاً ، حاولت اقناع الناس بعدم جدوى النضال وبات قطاع كبير يردد هذه المقولات ، ليس هذا فقط ، بل ان القوى صارت تتبع ابسط الطرق لتنظيم عناصرها فالشروط المكتوبة في الأنظمة الداخلية عادة لا تطبق ، فلا تمر عبر خطوات عملية تصقلك سياسياً وكفاحياً وتوسع من خلالها دائرة الجمهور المواجه للنظام ، يكفيك ان تقول بأنك

توافق على البرنامج السياسي وقد تمر بسلسلة خطوات مدروسة لصقل كفاحيتك وقد لا تمر بها ايضاً ، في معظم الاحيان لا تتناسب الخطوات مع العلاقات الاجتماعية ، احياناً تعلوها واحياناً أخرى تقل عنها مما افقد الحركة الوطنية جماهيرها ، الكثيرون من الذين تركوا الحركة الوطنية واهتموا بأنفسهم يقولون ذلك رغم الاتهامات الموجهة إليهم أقلها : متساقطون ، انتهازيون ، برجوازيون ، هؤلاء لا تؤخذ آراؤهم . ما حصل معي يثبت ذلك ، اقنعوني ان لا معنى للدراسة ، وضعوني في وهم ان النصر قريب وأن هذا البلد هو أهم الساحات، تركت الدراسة وجئت، وأخيراً طالبوني بالاختفاء ، لم يفدني اختفائي في منع السلطة من الوصول الى بيتي ، المزايدات السياسية في كل مكان وكأن هذا الطرف يريد تحرير الأرض وغيره يريد تسليمها والتآمر عليها ، كل متمسك بطريقة عمله حتى لو قالت الجماهير انه لا يناسبها ، لم اسمع مرة تحليلاً منطقياً عن سبب ترك الجماهير في معظم الساحات للاطراف مما أوجد ما سمي بعدها بالمستقلين ، قالوا بأن الوضع في لبنان كان ثورياً وبالتالي اجتذب الجماهير ، نسوا ان الوضع في الوادي كان ثورياً هو الآخر وانفضت الجماهير عنهم ، كل هذا أعرفه وأعرف ان المناضل يضيع في الخطوات العملية المطلوبة منه دون إتاحة الفرصة له للتفكير بصحتها وبتأثيرها على نمو الحركة الوطنية بشكل عام .

. . . .

وأنا اتجول في الشارع ، وجدت نفسي فجأة أقف بجانب محطة باصات المخيم أتفحص المنتظرين ، ابحث عن شخص ، ابحث عن حب

ضائع ، شهور عديدة مرت دون ان اراها ، رغم كل ما حدث ، إلا ان هناك شعوراً ينبع من داخلي يطالبني برؤيتها ،ليست هذه هي المرة الأولى التي أقف فيها هنا أراقب المنتظرين ، حدث ذلك مرات كثيرة وتتكرر أحياناً اكثر من مرة في اليوم الواحد ، دون تفكير اجد نفسي هناك ، اشتري سجائر أو أي شيء آخر من البقال وأشغل عيني في مراقبة المارة، هل اصبحت امرؤ القيس ! هل محطة الباصات هي اطلال لأقول شعراً ، بدأت احبك يا طرفة بن العبد ، فرغم كل ما قيل عن اصلك ونسبك ووجودك إلا انك كنت تفوح احساساً ، لو كنت شاعراً مثلك لقلت الآن أبيات شعر وجعلتها اكثر من وشم في ظاهر يدي ، انها وشم في داخل رأسي ، كم من مرة فكرت وقلت ان علاقتي بها قد تمزقت ! نعم هذا ما حدث ولا وجود حقيقي لشيء اسمه علاقة ، هل مشاهدتي لها تعيد العلاقة ! إن مشاعري تقول بضرورة رؤيتها ، لن اكون مبادراً إذا رأيتها ، سأعاملها وكأني أراها لأول مرة ، سأجعل من التعامل الرسمي سداً في وجهها .

رجعت الى بيت خالي، صعدت الدرجات ، طرقت الباب ، هل اجدها الآن ! هل ستفتح الباب كما نشاهد ذلك في الأفلام فيفتح كل منا فاه مندهشاً ! حينها هل سنلف بعضنا بأذرعنا ! آه ، لن أفعل ذلك ، سأحاول أن لا يحدث ، ... ، لكن فترة طويلة مرّت دون ان اكلم فتاة ، أنا بحاجة لكل شيء ، كل شيء ، لن أترك فرصة واحدة تفلت مني ، سأفرغ ما استطعت من طاقتي الكامنة ، إنها تكاد تنفجر ، ألستُ بشراً ! ألا أملك احاسيس كالآخرين ! لماذا يفعلون ولا أفعل ! لماذا ! لكن إذا وجدتها الآن فهي بالتأكيد ستكون شيئاً آخر ، علاقة وانتهت ، إن اقامة علاقة جديدة هي اسهل بكثير من رثي علاقة تتمزق ، لا أدري ماذا

أفعل حتى في هذه القضية ٠

فُتح الباب ، لم تحيني زوجة خالي ، لم تتكلم ، ظلت واجمة ، علامات غير عادية تكسو الوجوه ، وابتسامات مصطنعة ومختنقة تظهر من بين الشفاه والعيون ، إذاً هناك شيء ما ٠ التفت فاذا بعيون واسعة تبرق بالأمل ، بالفرح وبالحب ، بشرتها سمراء ٠ كما رأيتها آخر مرة ، الشعر أسود مسدل على الكتفين ، كل شيء ، كل شيء كما هو ، لم أدرِ ماذا أفعل ، إنها ريم ، ريم ، اجتاحتني العواطف مرة واحدة ، فقفزت في كل جزء من جسدي ، لكن ٠٠ ، يجب ان افكر في كل خطوة أخطوها ، مَدت يدها نحوي : أهلاً ماجد، الحمد لله على السلامة ٠

ها أنا اسمع صوتها من جديد ، نبرات صوتها لم تتغير ،صوت رخيم يملوه الدفء والحب والجنس أيضاً ، أمسكت يدها فوجدتها حارة، ظللت ممسكاً بها ، التقت عيوننا ، ابتسمت عيونها ، حركت أرنبة انفها بطريقة محببة ، جاءخالي، قال : تفضل ٠

لحقت به الى الغرفة ، طال الحديث معه عن العمل والمصاعب والمراقبة وكل شيء ، وددت لو اخرج فلم اجد مبرراً امامه ، فاذا بها تدخل مسرعة وتقف بجانبي قائلة : ماجد ! أتسمح لي ان اراك قليلاً ؟

لقد هبطت من السماء ، جاءت تطلبني ، نهضت وتبعتها الى الصالون ، اغلقت الباب وجلست مقابلي قائلة : لماذا دخلت عندخالك فبقيت طويلاً ؟ لم تسأل عني ، لم تعد ماجد الذي اعرفه ٠

- لماذا لم تأتي لزيارتي وأنا في السجن وحتى بعدها ؟ محاولاً القاء المسؤولية عليها ٠

- كيف ازورك في هذا الوضع ، كل الناس بمن فيهم خالك اتهموك بصفات لا استطيع التلفظ بها ، لقد كنت محاصرة فكيف ازورك ؟

- وماذا قلت انت ؟! ألم تقولي مثلهم ؟

- لا ، والله ، لقد اكتفيت بالصمت ، وجدت نفسي وحيدة ولم افعل شيئاً، لم ازرك لكني كنت اسأل عنك كل من كان يزورك من الاقارب ٠

- وماذا عن خطيبك ؟

- لم يخطبني بعد ، أنا لا أحبه ، انت تعرف ذلك ، انا احبك انت فماذا انت فاعل ؟! لم اعد احتمل قمع اخي لي ، لم اعد احتمل نظراته نحوي بعد اعتقالك ، لا أشعر بطعم الحياة ، هذه هي الحقيقة ، اخي لا يريد ان اكمل تعليمي ، يريدني ان اتزوج فماذا انت فاعل ! هل اتزوجه ! هل تغفر لي !

- يبدو ان اخاك اتفق معهم على بيعك ، ماذا يفيد تدخلي الآن ! الأمر يعتمد عليك انت ، انت تعرفين انني لا استطع الزواج الآن ، اني احبك ، اني اخطط للدخول ثانية الى السجن ، هذا هو علاجي ، انا بدون عمل وبدون مستقر ، لقد اخبرت خالي عن رغبتي فيك، اخوك يعرف كل شيء، يعرف اننا كنا نخطط للزواج ، ماذا أنت فاعلة من اجلي ! اخوك يعرف بانني لا زلت ارغب بالاتباط بك ويعرف وضعي جيداً ، انت التي تستطيعين فعل شيء ، هل تنتظريني بضع سنوات ! هل تقبلين بأن تعيشين معي !

- لا أعرف ، لا أعرف ، انا في حيرة ، انا في حيرة ٠ صرخت

سمعتها تصرخ ، لم احتمل ، رأيتها تحيبني، اقتربت منها ، امسكت يدها ، شددتها نحوي فتمنعت وعادت للجلوس ، قلت : لا يفيدنا كل ما تشعرين به اذا كنت لا تستطيعين فعل اي شيء من اجلي ، انني احب النضال السياسي ولا أستطيع ان انساه لحظة واحدة ، فكيف تريني ؟

- ليس المهم كيف اراك ، المهم ما العمل ، أنا حائرة ٠

. . . .

ذهبت لزيارة هشام ، سألني عن كل ما حدث ، اخبرته كل شيء حتى ما حدث مع ريم و قلت في النهاية : أريد ان ادخل السجن . فقال مازحاً : ها هو شرطي يقف خلفك اضربه وستدخل السجن أو قف في وسط الميدان واشتم الزعيم ، ستة شهور وستخرج .

- سأفعل . قلت

- اسمع يا ماجد ، لقد طلبوا همام للمحاكمة يوم الثلاثاء الماضي وقد ورد اسمك هناك ، يبدو انهم سيستدعونك لتشهد عليه ، ربما يكون ذلك يوم الثلاثاء القادم ، قرر ما ستفعله ، هذه فرصة تأتيك لتمحو بعض آثار الجريمة التي اقترفتها وستعالج نفسك أيضاً ، الى اللقاء .

اصبح يوم الثلاثاء عندي هاجساً كبيراً ، في اليوم التالي ذهبت استمتع بهواء شارع الحرية وبرؤية سكانه وتجاره ، مشيت سيراً على الاقدام حتى وصلت المقابر الأثرية التي حدثني عنها مجاهد ، حملت بعض الطعام معي ، وصلت متعباً ، وجدت كل شيء مقرفاً ، البراز في كل جانب والسياج الحديدي هدّته الاغنام ، لا تجد أية لافته تدل على شيء ، جلست على الصخر ، اكلت ودخنت ،الطقس الحار حرقني والعرق تصبب من كل ناحية في جسدي ، والغبار التصق برموش عيني ، سرت على امتداد الشارع فرأيت المحاجر ومصانع البلاط ، لم تستطع قدماي تحمل جسدي ،أوقفت سيارة وعدت .

قررت يوم الثلاثاء أن أذهب إلى مدينة القلعة لأعمل على تأجيل دخولي السجن ، ذهبت ، درت في الشارع ، صعدت إلى أعلى القلعة ونظرت إلى الوادي العميق ، رأيت حصونها ومخابئها في مواجهة الاعداء ، القلعة ما زالت صامدة منذ مئات السنين ، حاربت وانتصرت وكتب لها التاريخ ، القلعة الصامدة في وجه النظام برجالها وقصورها القديمة ، شعرت بالاعتزاز فعدت منتشياً ، في اليوم التالي ذهبت الى مدينة المدرج وتهت في مسارحها وابراجها وأعمدتها ، كل شيء رأيته جميل رغم الإهمال الذي لحق به ، كل شيء جميل رائع وجذاب ، هذا هو الوجه الآخر للوادي ، عدت إلى البيت فوجدت طاهر في انتظاري ، دعاني لمشاركة السجناء المفرج عنهم للذهاب في رحلة إلى الشمال ، ذهبت ، غنينا للثورة طوال الطريق ، غنينا للانسان والوطن والنصر والأمل ، لم أعد أخشى السلطة ، عشت في عالم آخر ، كانت المياه تنبع من أكثر من مكان في سطح الجبل ، شعرت بالنقاء ، فخرير المياه طهّر نفسي ، كانت المياه تنساب بين الصخور والحجارة البيضاء اللامعة ، تحيط به الاشجار والحشائش ، شعرت بالنشوة ، لم أعد أشعر بالغربة ، وددت لو ظللت جالساً هناك اكتب شعراً، وددت لو كنت أعمل هناك لأظل صافي النفس كل صباح ومساء ، مر اليوم مسرعاً لاجد نفسي في بيت خالي ثانية .

ظهيرة يوم الاثنين طرق الشرطي الباب ممسكاً بورقة وسأل عني ، قلت في نفسي : دقت ساعة المواجهة . ذهبت وإياه إلى المخفر ، خفق قلبي فرحاً واضطرب خوفاً معاً ، قال : ستنام الليلة في النظارة أو يأتي أحد لتوقيع كفالة قدومك غداً ، جاء خالي وووقع الكفالة ، مرت تلك الليلة سريعة ، لبست ثيابي ، ودّعت الأقارب ودرت في الشوارع أودع كل شيء ، احدق فيه جيداً،اقتربت الساعة من التاسعة والنصف ، توجهت نحو السيارات لاصل هناك قبل العاشرة .

جلست في انتظارهم ، كانوا يخرجون سجناء ويأتون بآخرين ،

هذا هو همام يأتي من بعيد ، ها هي لحظة المواجهة تقترب ، نهضت ، ناديته : همام! تطلع نحوي قليلاً وقال : اهلاً ٠ قادوه الى الداخل ، تسارعت نبضات قلبي واهتزت رجلاي ، هززت رأسي عدة مرات وتجولت في غرفة الانتظار حتى سمعتهم ينادونني ، اندفعت إلى الداخل ، رأيت همام يجلس خلف القضبان الخشبية ، هدأت من مشيتي ورفعت رأسي، القيت بالتحية على كل من في القاعة ، وقفت خلف منصة صغيرة ، ابتسم القاضي ذو البدلة العسكرية وقال : رفعت الجلسة لمدة خمس دقائق ٠ وقف الجالسون إلا همام فتطلع القاضي نحوه قبل أن يخرج ٠

ناداني همام : ماجد ، كيف حالك ؟

- جيد ٠ قلتها كمن يتكلم مع شخص كانت معه خصومة ٠

صرخ الحارس أن نصمت ، دون فائدة ٠

- هل ستعترف ؟ سأل همام ٠

- لا ٠

- وماذا ستقول ؟

- سأقول انني عرفتك في السجن ٠

- لا ٠ بل قل انهم اعتقلوني في بيتك وكنا قد تعرفنا في سيارات المواصلات ٠

- سأفعل ٠

ابعدني الحارس عن المنصة وأجلسني بعيداً عن همام ، فاذا بطاقم المحكمة يأتي ، نهض الجميع سوى همام ، قال الحارس : محكمة ٠

ظللت واقفاً خلف المنصة حيث يوجد هناك مصحف وانجيل ، قال القاضي : هل انت ماجد ؟

- نعم ٠

- أتقسم أن تقول الحق ولا شيء غير الحق ؟

- أقسم ٠

قلتها وأنا اضع يدي على المصحف ، قلت في نفسي : أنا الآن أعرف الحق ، الحق هو أن انتزعه منهم ، حقيقتنا ليست حقيقتهم ، لن يحاسبني ربي على ما أقوله ، بل سيحاسبني على ما قلته سابقاً ٠

- هل تعرف احداً ممن يجلسون هناك؟

تطلعت نحوهم بهدوء ثم أدرت وجهي نحوالقاضي وقلت :

اعرف همام ٠

- ماذا تعرف عنه ؟

- إنه صديقي واعتقلنا معاً ٠

- كيف تعرفت به ؟

- في سيارات المواصلات ٠

- هل ينتمي لحزب سياسي ؟

- لا أعرف عنه شيئاً من ذلك ٠

- ماذا ؟! (صرخ) ولكنك اعترفت بذلك وها هو توقيعك ٠

- اين هو ! أنا لم أوقع مطلقاً على أية ورقة في دائرة المخابرات أو في أي مكان آخر ٠

- ألم توقع على أية ورقة ؟

- مطلقاً ٠

- وماذا تقول عن هذا التوقيع ؟ ألا يخصك ؟!

جاء الحارس يحمل ورقة بيده عليها توقيعي ، نظرت نحوها وكأني أراها لاول مرة ، دققت النظر فيها ، هززت رأسي آسفاً ثم قلت متوجها إلى القاضي :إنه توقيع مزوّر ، قلت لك انني لم اوقع أية ورقة

اثناء التحقيق .

- هل تعرف أنك ستسجن بناء على هذا التصريح بتهمة الشهادة الكاذبة ؟!

- لا يهمني .

- وددت أن أدلي لك بنصيحة .

- شكراً على نصيحتك .

رفعت الجلسة ، قادني الشرطي خارج المحكمة ، قيّد يديّ وساقني إلى عربة نقل السجناء ، جاءوا بهمام وبسجناء آخرين ،انتظرنا حتى الثانية عشرة ووجدنا أنفسنا على باب السجن ، قادوني إلى الطابق الثاني لتسجيل اسمي ضمن السجناء ، غمرتني الفرحة وأنا أفعل ذلك بعد الابتسامات التي لاحظتها على شفتي همّام ، فتحت بوابة السجن فوجدت هشام في انتظاري ، عانقني وقبّلني قائلاً : أهلا يا رفيق .

حلقت في الأعالي وأنا أسمع كلمة رفيق ، مر زمن طويل دون أن أسمعها ، ابتسمت ، شعرت بنشوة الانتصار ، وضع يده على كتفي وقال : ما فعلته اليوم يُعد عملاً عظيماً ، ها أنت تتقدم ، أهلاً بك . وقف عند باب الغرفة وقال : لقد عاد إليكم الرفيق ماجد . نهضوا جميعاً ، عانقوني والابتسامات تعلو شفاههم ، جاء المعتقلون السياسيون من الغرف الأخرى وجلسنا معاً ،لقد عُدت واحداً منهم ، الاحترام الذي أناله أشعر به كبيراً ، كل منهم يود التحدث معي ، قال هشام : هل رأيت حاتم ؟

- لا ، أين هو؟

- أفرجوا عنه منذ أسبوع .

- أأفرجوا عنه ! كيف ؟

- افرجوا عنه وحده ، لا نعرف كيف بالضبط ، استدعوه في دائرةالمخابرات ومن هناك خرج .

- لم أره ، تمنيت لو أجد احداً أحدثه ويحدثني .

- ليس مهماً التحدث معه الآن ، يبدو أنهم أوقعوا به .

- أوقعوا به ! لقد صمد كثيراً وسجن ما يزيد على ثلاث سنوات . فكيف حدث ذلك ؟!

- لا نعرف شيئاً ، ظننت أنك رأيته .

أصبت بالامتعاض مما قاله ، لكني فرحت لكلامه ، فها هو يحدثني عن حاتم وكأنه أصبح أقل مني منزلة ، حاتم يهبط وماجد يصعد ، ما الذي جعله يقع في شباكهم ، لقد عانيت كثيراً من أزمتي وكم تمنيت العودة إلى السجن ، السجن كان أملي وها أنا احقق الأمل فكيف هرب حاتم من بين زملائه ! غريب ، سيعاني مثلما عانيت ، بل لربما هو الذي قرر ذلك ، وكيف يحدث هذا ! فعلى اكتافه بنيت العديد من الخلايا في الوادي ، لقد كان اكثرهم ثقافة واكثرهم تجربة ، لقد قابل العديد من زعماء الفصائل الأخرى ، ماذا حدث ! قبل أن يسجن هشام كان هو المسؤول الأول عن رفاق الحزب ، فكيف حدث ذلك ، كاد يشل في دائرة المخابرات نتيجة التعذيب ، كاد يموت وهو يعاني في السجن من أثر التعذيب قبل نقله للمشفى ، كان محط الانظار داخل السجن وخارجه ، سألت هشام : وهل كنتم تعرفون عن حاتم قبل استدعائه ؟!

- لا ، لكننا الآن نحاول تحليل كل تصرفاته وحالته النفسية قبل خروجه ، لقد كانت حالته سيئة في الفترة الأخيرة ، كثّف أهله من زيارته ، كان ينزوي كثيراً ولم يعد يقرأ أو يناقش ، فجأة طلبوه ، وفجأة خرج .

- ماذا يعني ذلك لكم ؟.

- لن يغير من مسيرتنا ولن يحرف نضالنا ، هكذا إختار ولن نسأل عنه .

لكم تمنيت أن أحادثه قبل دخولي المعتقل ، لم تتح لي الفرصة لذلك بسبب سقوطي في المخابرات ، سمعت عنه كثيراً ، أحببت أن أتعرف على تفاصيل حياته . وتجربته النضالية وها أنا أفتقده ، لقد رأيت هشام يحادثه قبل اصدار الحكم حين انتقلت إلى الغرفة البعيدة، معنى ذلك أنه كان جزءاً من القرار بحقي فكيف يمارس ما عوقبت بسببه ، رأيت علامات الاحتقار لحاتم في عيون هشام ، أحسست بأنه يتكلم عن حشرة ، هذه هي الحياة ، لقد اخترت حياتي بهذا الشكل ولا رجعة عنها .

صرت أخرج إلى الساحة أتجول في كل مكان ، أمارس الرياضة في الصباح ، أعود فاغتسل ،أذهب إلى المقهى وإلى المكتبة وأعلم الطلبة ، أنام ظهراً وأناقش كتباً مع السجناء عند العصر ، وفي الليل أتابع بعض برامج التلفاز وانهمك في القراءة بعدها حتى منتصف الليل ، قرأت الكثير وناقشت كثيراً وبت استمتع بالحياة من جديد.

قبلت كل دعوات تناول الغداء في الغرف الاخرى ، كان هشام يرافقني وتدور نقاشات سياسية طويلة شاركت في بعضها ، شاركت في البداية بخجل لكني صرت جزءاً من النقاشات العامة وان لم يكن بصورة واسعة ، شعرت بأن حاجزاً ما زال يفصلني عنهم جميعاً،كان هناك إحساس داخلي بأني اكثر ليبرالية منهم ، لم أكن أصر على رأيي كما كان هشام ، فعلى الرغم من أنني كنت مقتنعاً بضرورة تشكيل اللجان الشعبية في لبنان إلا أنني اعتبرت أن خوض المعركة الشاملة ضد كل

القوى الرجعية هناك يعتبر مغامرة ما لم يكن هناك اتفاق وطني عام على ذلك ، فخوض المعركة بعناصر الحزب وحده يمكن أن يؤدي إلى نهاية الحزب ونهاية الافكار المطروحة ، وعلى الرغم من قناعتي بأن ليس هناك فصل بين الزعيم والحكومة إلا أن طرح مسألة اسقاط الزعيم وسلطته لا يلاقي جمهوراً واسعاً مثلما تلاقيه إعادة الحياة البرلمانية والديمقراطية ، ولم أر أن الطبقة العاملة بامكانياتها وحجمها يمكنها اسقاط الزعيم ونظامه ، ففي الجانب الاخر كنت اعتبر ان النظام هو مجرد وسيط تجاري لبيع المنتجات الاجنبية وهو مثقل بالموظفين في شتى المراكز : الجيش والتربية والتعليم والجامعات والمعاهد والصحة ومئات الشركات الصغيرة والكبيرة ، وعليه فانه لا يمكن اعتبار العمال وحدهم نواة الثورة ، فالموظفون في غالبيتهم فقراء أو يقتربون من خط الفقر ، كما انني لم ار أن الصراع في إطار الوضع القائم ينطلق من تحالف القوى الثورية التقدمية في مواجهة الحركات الدينية والسلطة معاً ، وقد كان تعرفي بمجاهد في الزنازين لنقضي أن الحركات الدينية يمكن التحالف معها في مرحلة التحرر الوطني ونفيهم أو نفينا فيما بعد ، لم أكن أتخيل أن أقتله أو يقتلني ، فها هم في السجن مثلنا ويحاكمون لسنوات ، فهل بالامكان الاتفاق على هدف واحد مشترك لاسقاط النظام وإقامة دولة ديمقراطية لنا جميعاً ! وحتى الدولة الديمقراطية نفسها هي أحد الأوجه السياسية للدولة والتي سترتبط بالضرورة بالعلاقات الاجتماعية والأخلاق والقيم التي لا يمكن أن تكون إلا من خلال التراث الطويل لهذا الشعب والذي لعب دوراً كبيراً في صقله .

لم اتصور أن طرح هذه الاجتهادات ستؤدي إلى أزمة مع هشام ،

ازدادت دعوات تناول الغداء والعشاء في الغرف الأخرى ، وصار أن انفرد بي في الأيام التالية مسؤولو الغرف ، دعوني إلى الانضمام إليهم ، شكرتهم على هذا الاحترام ووضحت لهم أنني أيضاً اختلف معهم في امور أخرى واضفت : يجب أن تعرفوا بأمر واحد يشغلني وهو أن أعود لرفاقي القدماء رغم بعض الخلافات معهم، المسألة بالنسبة لي لم تعد مجرد قناعة بافكار هشام وهمام ، وأنا ما زلت اثق بمعظم ما يقولونه، لكن المسألة اصبحت أيضاً مواجهة التحدي .

أمهلوني فترة لافكر في الامر ، لم أرد بالايجاب ، لم يفهموا التحدي الذي أعيشه ، ما أصعب أن تشعر بأنك تهرب من المواجهة حتى لو كنت مقتنعاً بفكرة غيرها ، قالوا بأن الشدائد محك الرجال وفهمت الآن أن المحك هو القدرة على المواجهة ، يجب أن أفهمه كذلك ، فتحت يافطة العقلانية يضيع التحدي ،التحدي هو جزء من العادات الاجتماعية والذي لا يتلاءم مع شعارات كثيرة ، إذا واجهت مشكلة مع أحدهم في الشارع يكون المطلوب منك أن تتحدى ، فحين كنت اسير في الشارع برفقة ريم ، شعرت ان شباناً يلاحقوننا ، كانوا يقومون بأعمال زعرنة ، وقفت متحدياً فاذا بهم يأتون ، كانوا حوالي ستة اشخاص وتبدو عليهم علامات السجن ، شعرت بأني سأخسر المعركة إن واجهتهم بعضلاتي ، صرخت فيهم أن يهدأوا ، والقيت كلمة تدعو إلى الالتزام بالاخلاق واحترام حرية الآخرين ، وقف بعض المشاة يشاهدون الحدث فسمعت أحدهم يقول : إما أن تضربوا بعضكم لنرى من هو الخاسر أو ينصرف كل إلى بيته . انصرفنا ، كل الناس تتحدى بطريقتها ، لكنها في النهاية تتحدى ومن لم يقبله يهوى الى القاع ، هناك من يهرب من تحدٍ فيجد تحديات أخرى ، اكثر الناس ظلماً

والمقموعين في الشارع وفي العمل يبحثون عن تحديات بشكل عنيف في البيت ضد الزوجة والاولاد ، والزوجة تتحدى اطفالها ، والاولاد يتحدون الذين أصغر منهم سناً أو اولاد الجيران ، الحياة هي مجرد سلسلة من التحديات ، ما أريده الآن هو أن اواجه التحدي الذي يواجهني ، سمعت شيخاً يقول بأنه وعندما نزل في مطار بيروت ركب سيارة اجرة فاكتشف السائق أن الذي يجلس بجانبه هو رجل متدين ، فقال : هل تعرف شيئاً عن هذه السيارة ؟!

- لا . أجاب .
- انها مسروقة .
- ماذا تعمل أنت ؟ ألست سائقاً ؟! قالها بدهشة .
- لا ، انني في الاصل سارق .
- أعوذ بالله ، كيف تسرق ؟
- لقد سرقتها من بيروت الشرقية وسأظل أسرقها ، يجب أن تعلم بأن سرقة هؤلاء حلال لا حرام.
- لكنها في النهاية سرقة .
- وسأحج هذه السنة .
- تحج ! أتسرق وتحج في نفس الوقت .
- نعم ، لقد اصبحت المسألة بالنسبة لي تحدياً ، هم أيضاً يقولون ذلك، لن أحج إلا من أجل التحدي.

شاهدت العديد من الافلام السينمائية ، كلها تحض على التحدي ، يقتل إبن البطل أو زوجته ، فيحمل مسدساً في اليوم التالي ويدور على القتلة واحداً واحداً ، يقتلهم ولا يهمه إن قضى بقية حياته في السجن ، قبل بالتحدي وانتصر ولا يهمه بعدها التحديات الصغيرة التي تدور

حوله ، السجن يصبح جزءاً من التحدي وها أنا في السجن ثانية حتى اواجه التحدي ، خرج حاتم قبل أن أدخل السجن ، لقد اختار أن يواجه التحديات الصغيرة واليومية ونسي التحدي الكبير الذي اغوص فيه الآن ، لو عاش تجربتي ، لو أحس بها فعلاً لما سقط ، لقد تمنيت من قبل أن اكون مثله لكني الآن صرت أفضل منه ، يقولون بأن القانون لا يرحم عاقلاً ولا جاهلاً ، أما أنا فاعتقد أن هناك فرقا بين الجاهل بالقانون والعارف به ويجب أن تختلف العقوبة ، فأنا أومن بأن القاتل إذا عرف بأنه سيعلق بحبل المشنقة يوماً فسوف يتردد في فعلته ، أما الجاهل به فسيعلق عليها دون أن يخطط لذلك مسبقاً، لقد اعترفت دون أن أحسب حساباً للوضع النفسي الذي سأعيشه ، أما حاتم فقد عايش وضعي وكان جزءاً من القرار لكنه في النهاية وقع ، المشكلة في مجتمعاتنا أن القرارات تتخذ في غالبيتها دون الآخذ بعين الاعتبار ردة الفعل الجماهيرية والنفسية ، فمتخذو القرارات يعتبرون بقية البشر مجرد أدوات لتحقيق أو الرضوخ لمطالبهم ، ما أحلم به هو ان يكون هناك تطابق كامل بين القرار والوضع الانساني ، إنني أعيش هذا الوضع ولا يحس به الآخرون .

عملت في المقهى ، وجدت في ذلك فرصة لكي لا أشعر انني عالة على أحد بما في ذلك هشام ، وجدت في ذلك أيضاً فرصة للتعبير على انني أود عمل شيء من أجلهم ، فنحن نعيش من عمله ، وأردت أيضاً أن اهرب لبعض الوقت من الغرفة حتى لا أشعر بانني اشكل ثقلاً على جلسات هشام مع الآخرين ، كان يجلس مع كل رفيق ويتحدثون في أمور سياسية كنت أنا المستثنى منها ، أردت أن اقتل بعض الملل الذي صرت أشعر به فأنا في النهاية في سجن رغم سعته ، جاءت بعض الفرق

الغنائية وأقامت حفلاً للسجناء وفاء بوعد أحد المفرج عنهم من المغنيين ،استمتعت ببعض فقراته لكن الحفل ذكرني بالحياة خارج السجن ، فازت فرقة السجن المسرحية بعرض لها ، شعرت بالفخر لكني صرت أشعر بظلام السجن ، أردت الابتعاد عن كل ذلك فانهمكت في العمل ، كنت أخرج في السادسة صباحاً ، انظف ساحة المقهى وأغلي الماء وأرتب المقاعد وألبي طلبات الزبائن وأعود عند إغلاق الاشباك ظهراً ، أتناول الغداء ثم أزاول عملي حتى الخامسة مساء .

طالت الأيام ، شعرت بالارهاق واستمتعت به أيضاً ، إذ كنت أنام بدون أرق ، لكن الحياة أصبحت رتيبة وخانقة خاصة بعد تردد همام على المقهى ، شعرت في البداية أنه يجاملني ، سألته عن زوجته زينب فقال : انس زينب ، إنها عند أهلها ، يبدو أن امها استطاعت أن تؤثر عليها ، تريد تزويجها من رفيق يعيش هناك .

حاولت أن يطيل في الحديث عن زينب ، حدثته عن صاحب البدلة الذي تعرفت عليه في شارع الحرية ولا يستطيع العمل بدون الزواج من حبيبته فقال متعجلاً : لقد تزوجا ، لننسى كل ذلك ، دعنا نتحدث في الأمور الهامة .

- قل ما تريده .
- ماذا ستفعل بعد خروجك من السجن ؟
- سأفعل كل ما في وسعي للعودة إلى الحزب .
- أين ستذهب ؟
- إلى الوطن ، سأعيش عند الاهل .
- هذا لن يفيدك .
- لماذا ؟

- يجب أن تذهب إلى لبنان ٠

- لماذا ؟

— .... حدق في دون أن يقول شيئا.

- وهل عودتي إلى الوطن تعني عدم استطاعتي استعادة عضويتي ؟!

- الفرق بين لبنان والوطن هو أن ذهابك إلى بيروت سيصقل كفاحيتك بسرعة ، أما في الوطن فان العمل هناك يكون جماهيرياً وسياسياً وتحتاج لفترة طويلة لصقل كفاحيتك وبالتالي استعادة عضويتك ٠

- وماذا أفعل مع الأهل ! هل سأعاني بسبب الابتعاد عنهم من جديد ! أهلي بحاجة إليّ ٠

- كل شيء يتدبر ، يجب أن تحسم أمرك للنضال فقط ٠

- أليس الرجوع إلى الوطن نضال هو الآخر ٠

- يجب أن نعمل على تركيز جهودنا ، الساحة المركزية هي لبنان ، اما أرض الوطن فهي الساحة الرئيسية على المدى البعيد ٠

ماذا أقول له ! اصبت بالامتعاض مما قاله ، فأنا لست مؤهلاً للخروج في وقت قريب أولاً ، ثم ماذا يعني أن اختار بيروت فقط ! النضال في كل مكان ، أنا لا أملك القدرة على اقناعه ، فهو لا بد أنه يبلغني قراراً فكر فيه طويلاً ، لا أحس بالانسجام مع هذا القرار وإذا رفضته فلربما اعتبرني خارجاً عن تحقيق الرؤية الوطنية ، همام لا يتركني أنسج حياتي الانسانية والاجتماعية كما أراها ، هو يريدني أن أنسى كل شيء وأبدأ من جديد ٠

مرت الأيام وأنا لا استطيع الابتسام ، لامني الرفاق على اني لا ابتسم للزبائن ، اشتكيت همام لهشام فوافقه وإن كان اكثر لطفاً ، وقال: لا ضرورة الآن لبقائك في السجن ، يمكنك الخروج بكفالة وسنتدبر تسللك ٠

لم أكن أود الخروج ، فأنا لا أملك بيتاً أسكن فيه ، لا أملك عملاً أعيش من دخله ، لم يكن ذلك يغير شيئاً عند همام وهشام ، لم أعد احتمل السجن ولا احتمل الخروج منه أيضاً ، صرت أمشي تائها بافكاري ، لم استطع الغوص في أي كتاب أقرأه كما في السابق ، لقد شتت افكاري ، قبلت التحدي واكتشفت أنه مخيف ، ليس بسبب أني أخاف منه بل بسبب أن همام يريدني أن اتحدى بشكل آخر غير الذي افكر فيه ، اعتقدت أنه سيشجعني حين اخبرته باني ذاهب إلى الوطن ، يريدني أن ألقى في قاعدة عسكرية وأتيه بين الاسلحة والطلقات ، أنا أحترم هؤلاء كثيراً لكني لست ملائماً لها ، المشكلة هي انني سأبدأ حياتي من جديد ، ما أصعبها ! كنت أود أن أعيش حياتي كما كانت في السابق ، عمل سري ونضال وكفاح بالاساليب المتبعة في العادة ولكن ...

اختلقت الاعذار عدة مرات بعدم وجود كفيل ، لم استطع اقناعهم٠

ظهيرة يوم سمعنا خبراً عن اغتيال السادات ، طار السجناء فرحاً ، غنوا ورقصوا وهتفوا في الساحات ، لم استطع سوى الابتسام، لم استطع التعبير عمّا يفرحني في هذه المناسبة ، أقيمت حفلة في الغرفة وكنت أشاركهم بخجل وانزواء ، اقتربت الساعة من الثانية عشرة ليلاً فاذا بشرطي يفتح باب الغرفة ويدخل شباناً مفتولي العضلات ويحملون عصياً ، كانوا سجناء مثلنا ، نهضنا مسرعين وردنا ضرباتهم ، انهمكنا في معركة طويلة امتدت خارج الغرفة ، لاحقناهم ، هتف سجناء الغرف الأخرى ، هزوا قضبان ابوابها فخلعت ، دارت معركة عنيفة أبلينا فيها بلاءً حسناً ، لحظات فاذا بقوات من الشرطة تندفع مرة واحدة ، القوا قنابل الغاز المسيل للدموع نحونا واشعلت الكشافات ،

إنهالوا بالضرب علينا جميعاً ، فرض نظام منع التجول على الغرف في الأيام التالية ، لم نعد نستطيع الخروج إلى الساحة ، وحين فتحوها رفضنا الخروج وامتنعنا عن تناول الطعام لحين الافراج عن المعتقلين في القبو ، الألم والجوع أكلا معداتنا ، مرض بعض السجناء ونقلوا إلى المشفى ، عرفنا أن اعتصامات الأهالي بدأت في مقار الصليب الاحمر ، قمعوا المعتصمين في الخارج وفي النهاية أعادوا السجناء إلى الغرف .

شعرت بالزهو في هذه المعركة ، شاركت وبفعالية ، شعرت بالاحترام في عيون همام وهشام اكثر من قبل ، جلست وهشام عدة مرات ، تحدثنا عن ظروف السجن وضرورة المواجهة ، فحتى الكتب التي كنا نقضي وقتنا في قرائتها صادروا معظمها ، طلبوا رسوما مضاعفة على المقاهي التي اعتبرت مراكز سياسية لاجتذاب سجناء آخرين ، باح لي باشاعة تقول بأن ادارة السجون ستوزع السجناء السياسيين على معتقلات عديدة لحين الانتهاء من اعداد سجن الصحراء وقال : لا ضرورة لبقائك في السجن ، تستطيع الخروج بكفالة، لن يحكموا عليك في النهاية اكثر من ستة شهور وها انت قضيت معظم المدة ، أخرج وسنتدبر أمر التسلل .

وافقته خاصة حين اكتشفت ان جلسات المحكمة ستطول بين احضار الافادة من المحكمة العسكرية وخبير الخطوط والشهود ، قررت أن أخرج وأعمل أي شيء ، اتصلت بخالي والتقينا في المحكمة ، وقع الكفالة أمام القاضي ، عدت إلى السجن حتى العصر حين أعلنت الادارة عن استدعائي للافراج عني ، ودعت السجناء واحداً واحداً ، قبلتهم وشددت على ايديهم قبل أن أخرج الى الشارع .

كنت مزهوا بالسير في الشارع ، شارع الميدان أصبح بالنسبة لي شيئاً آخر ، صرت أحبه ، أتمشى في الشارع وأنا أطل على البيوت الفقيرة المبنية باللبن والمغطاة بألواح الزينكو ، رأيت المخيم يصغر شيئا فشيئا بينما يهجره أهله الى أعلى الجبل الشمالي ، عملوا على تقسيم المخيم وتفتيته لكنهم خلقوا في النهاية جماعات أشد قرباً في الحمولة والبلدة ، هجّروهم بسبب أن هذا الشارع هو في النهاية طريق استقبال الزعماء ، خجلت الحكومة من الرؤساء الأجانب فعملوا بالتعاون مع بنوك الاسكان لاجتذابهم بعيداً عن مواكب الاستقبال . وها هم يعملون على نقل السجن إلى الصحراء رغم أنهم يسمونه بمركز الاصلاح ، هم يعملون على تغيير الواقع لكنهم لم يستطيعوا تغيير ما في رؤوس الناس ، يتغير الناس وفق ما تمليه عليهم مصلحتهم دون أن تأخذ في معظم الاحيان شكلاً صدامياً مباشراً، الناس تتصرف بطرق أخرى بطيئة لكنها اكثر تأثيراً في النهاية ، فماذا ستفعل السلطة إذا كان سكان قريةمعينة يسكنون في مناطق محددة من الجبال ! ماذا ستفعل اذا كانت مواكب الاستقبال لا تثير سكان المخيم والجبال ! لقد استقبل أحد الرؤساء الأجانب قبل اكثر من سنة بالضباط والجنود والاندية وطلبة المدارس الذين أجبروا على إقامة الاحتفالات بينما ظل موظفوا الشركات والمتاجر يعملون والباعة يصرخون حتى تباع بضاعتهم ، لقد اوقفوا آليات النقل الخاصة والعامة لتجد الشوارع مليئة بمن لا يستطيعون الوصول إلى بيوتهم وانهالت الضربات وعلت الشتائم واندلعت المشاجرات بين الركاب بعدها .

قادتني رجلاي إلى بيت خالي ، لاقيت استقبالاً فاترا ، لم يثرني ذلك رغم أني استحق الان ما لاقيته من استقبال في المرة الماضية ، لم أعد

ماجد الذي كنته ، إنني أتغير ، انني الآن اقف على أرض النضال وهذا هو السبب في سجني ، يبدو أنهم لم يفهموا ذلك ،لقد جرتهم الحياة لمصاعبها وفي النهاية هم ليسوا والديَ ٠ قررت ان ابحث عن غرفة صغيرة اسكنها دون أن اكلف احداً عناء ضيافتي ، فهذه المرة لا استطيع تحديد المهلة التي سأبقاها ، يجب أن أعيش حراً أنا الاخر ، اخرج عندما أريد ، واجلس عندما أريد ، وأنام متى أريد ، واذهب الى الحمام متى اريد ايضا ، في هذا البيت لا استطيع ان افعل شيئا باختياري ، يجب ألا ألومهم فلم أعد صغيراً حتى أظل عالة عليهم ٠

حملت نفسي ودرت ابحث عن بيت ، وجدته ، كان غرفة وحمام ومطبخ في اطراف نفس الجبل ، شعرت بالراحة وانا اتقلب في الفراش وحدي ، لم يعد الخروج الى الشوارع يهمني كثيرا ، فانا اشعر بالحرية والراحة في هذا البيت بين الكتب والدفاتر ، كنت اخرج فقط لاكتساب دفع جديد للقراءة ، مرت الايام ، مثلت في المحكمة بمعدل مرة في الاسبوع ، زرت هشام اكثر من مرة ، قال : الأفضل أن توكل محامياً وطنياً لمتابعة قضيتك والانتهاء منها ٠

فعلت ، شرحت له قضيتي ، وقعت التوكيل وقرأت عليه مشروع المرافعة التي كنت انوي تلاوتها ،قال : يا ابني ، كل ما قلته صحيح لكنه لا يفيد شيئا ، هؤلاء يوجهون لك تهمة واضحة : شهادة كاذبة ، سيحضرون خبيرا للخطوط وشهودا ، أنت أمام خيارين ، إما أن تقول بانهم انتزعوا منك شهادة كاذبة تحت التعذيب ، أو أن لا تعترف بالتهمة كلها استكمالاً لما قلته سابقاً ، ضع هذه المرافعة في جيبك وأنا المكلف منذ الآن بتلاوة مرافعتي القانونية ٠

بحثت عن عمل ، درت على المقاهي ، عملت أياما في احداها كنت

احمل القهوة والشاي طيلة النهار وحتى أوائل الليل ، لم يهمني الأجر كثيراً رغم اني لا استطيع الاستغناء عن مساعدة اهلي ، لكن ما أثارني هو تصرفات بعض الزبائن ، شعرت بنفسي خادما ليس إلا، أثارني أحدهم ، حاولت اهماله ، صرخ فيَ : يا جرسون ،انت حمار ٠

انقضضت عليه ، أمسكته من ربطة عنقه ، سحبته الى الزاوية وبصقت في وجهه ،أسرع صاحب المقهى نحوى صارخاً ، بصقت في وجهه أيضاً ، ألقيت بالوزرة وخرجت ابحث عن عمل ، بوساطة أحد الاقارب صرت مسؤولا عن تصدير الحجارة إلى الخارج في احدى الشركات ، كنت أحدد الكمية المراد تصديرها وقياسها ومن ثم ترتيبها في الشاحنة ، كنت أشعر بالتعب والمتعةمعاً وأنا أعمل في المحاجر حيث الجبال الجميلة والمساحة الشاسعة دون بيوت ، كنت أقف فوق الشاحنة واغني، استطعت هناك كسب صداقة العمال المصريين ، أعمل شاياً لهم ونشرب معاً والاحاديث الممتعة تسلينا ، كانوا يتحدثون عن «الترع» وتربية الأبقار والزوجة والاولاد كأنهم يعيشونها ، أحسست بمعنى الوطن بالنسبة لهم ، انهم يعملون باجور قليلة ، واكتشفت ان بعضهم يحمل شهادات متوسطة وبكالوريوس في ادارة الاعمال والعلوم والتاريخ ، أرادوا أن يذهبوا إلى دول الخليج ، فكانت هذه البلد لهم معبراً ومكاناً للعمل ٠

زرت بيت خالي، فوجئت بطريقة الاسئلة الموجهة الي :

- أين تذهب أنت ؟
- كما تعلم ، فأنا إما في البيت أو في العمل ٠
- كيف سنتخلص من هذه المشكلة التي خلقتها ؟
- أين المشكلة ؟

- المخابرات .

- مخابرات !

- نعم ، فهم يأتون كل يوم يسألون عنك ، نقول لهم بأننا لا نعرف أين أنت ، بعد زيارتك الاخيرة قالوا : لقد كان هنا قبل دقائق فأين ذهب ؟ إننا نعيش في حالة رعب ، إنهم يراقبونك ويراقبوننا ، ما العمل ؟

صمت برهة ثم قلت: سأجعلهم يزعجونني وحدي ، لن أجيء لبيتكم ثانية .

- نحن لا نطلب منك ذلك لكن من الأفضل ان تقلل من زياراتك .

- سأفعل ، لن يأتونكم مرة أخرى .

شعرت بالامتعاض مما قاله خالي، سأعيش وحدي كما أنا إلى أن يبتُ الله في امري ، يجب ان اكون حذراً ، ارسلت خبراً لهشام عما حدث، فاجاب : لا تقلق كثيراً ، فلن يصيبك اكثر مما اصابنا ، انهم يعملون على إرعابك ، ولو ارادوا الوصول إليك لقبضوا عليك ، لا تشعر بالخوف ، جرب ان تواجههم إذا ما قابلتهم .

ترددت في الذهاب الى المحكمة ، هم بالتأكيد يعرفون موعدها ، سِرت في الشارع محاولاً اكتشاف اية مراقبة من احدهم ، لم اشعر بمراقبة حقيقية فحين اشك بها تضيع بعد لحظات ، توقعت ان اجدهم على مدخل المحكمة او في ممراتها ، لم اجد احداً ، دخلت القاعة فاذا بهم يأتون بالافادة ، لكن خبير الخطوط لم يأت ، ومرت الجلسات متتابعة اسبوع بعد اسبوع ، ارسلوا لاكثر من خبير للخطوط وحين علموا بتفاصيل القضية اعتذروا ، صِرت اشعر بمراقبة في كثير من الأماكن ، لم اهرب منهم ، ظللت اتمشى على مهل علّهم يقبضون علي إذا ارادوا ذلك فعلاً ، لم يقتربوا مني ، ظلوا بعيدين ونظراتهم تطوقني ،

لم أشأ ان يعرفوا اين اسكن ، كنت اتخلص من المراقبة كلما قررت الذهاب الى البيت ، كنت حينها استقل عدة سيارات وعبر الأزقة اصل بيتي ، لبست الكوفية والعقال في محاولة للتخفي ، صار ابن خالي يأتيني ويحدثني عن الزيارات المتتالية التي لا تتوقف ، استمعت له دون أن يثيرني ، فأنا الآن أعيش حياة غير التي كنت أعيشها قبل اعتقالي ، واستطيع التهرب منهم إن أردت ، لن يَدُل علي حسين أو غيره وإن حدث أن جاءوا لاعتقالي سأذهب معهم ، اخبرت المحامي عما يحدث فقال : لن يستطيع احد حمايتك وانت في الخارج ، السجن هو أفضل مكان لحمايتك رغم انهم يستطيعون استدعاءك من هناك ، المحكمة المدنية وحتى العسكرية لا تملك سلطة على جهاز المخابرات ، افعل ما تراه مناسباً ، سأحاول ان اتعجل في انهاء القضية .

قضيت عدة ليالٍ مع العمال المصريين لكني وجدت انني ضيف ثقيل فالغرفة لا تتسع لهذا العدد الكبير منهم ، ذهبت لزيارة هشام ، حدثته عن وضعي ، قال : لقد حاولنا طيلة الفترة الماضية ان نساعدك في التسلل والذهاب إلى لبنان ، لم نستطع ، حاولنا مع الآخرين لمساعدتك ، اخبرونا بأنه من الصعب عمل ذلك في هذه الظروف ، هناك اخبار تقول بأن هجوماً اسرائيلياً وشيكاً سينال بيروت ومن الضرورة إذن حشد القوى هناك لمواجهتهم ، بالرغم من انك لست مقاتلاً لكن يجب ان تذهب ان كان باستطاعتك ، لم نستطع عمل اكثر مما عملنا ، ربما من الأفضل ان تسافر الى اوروبا وتعود الى بيروت ، هذا سيكون صعباً بالتأكيد لكن اذا انتهت المحاكمة واكتفوا بالمدة التي قضيتها في السجن تستطيع الخروج حتى لو كلفك الأمر الذهاب عبر ارض الوطن .

صِرت مطوقاً من كل جانب ، ما دام الأمر كذلك يجب ان اعيش

بعيداً عن عيون المخابرات ، وجدت بيتاً صغيراً في حي آخر سكنته ، لن تستطيع المخابرات هناك مراقبتي بسهولة إذ أنزل درجات عديدة حتى اصل الى زقاق ضيق يصل الى البيت ، وهناك عدة طرق استطيع الدخول من احداها والخروج من اخرى ، عند اقتراب الليل كنت اجلس في البيت، يأتيني بعض الاصدقاء ، نتحدث عن الوضع في بيروت والمرحلة المقبلة ثم نغني للثورة والإنسان ، جاءني ابن خالي قائلاً : ألم تسمع شيئاً عن ريم !

- لا .
- سأقول لك شيئاً ؟
- هل طلبت منك ان تخبرني شيئاً ؟!
- لا ، انها ستتزوج يوم الجمعة .
- تتزوج !
- نعم
- وأنا !
- من لايملك ثمن الزواج سيبقى عازباً .

شعرت بالاهانة ، تطلعت نحوه دون ان افعل شيئاً ، ماذا افعل ! انا لا أملك شيئاً حسب العرف الاجتماعي ، لقد فقدتها ، ها هي تقفز من امامي مرة واحدة ، لم اعمل على لقائها خلال الفترة الماضية ولم تفعل هي شيئاً ، بقيت طوال الليل صاحياً ، لم اعرف للنوم طعماً ، ذهبت في اليوم التالي الى بيت خالي، لم يهمني إن كانوا سيعتقلونني ، احببت ان اراها هناك ، لم اجدها ، قال خالي : سبحان الله ، لقد عرفته ريم منذ مدة قصيرة بينما تمسك بيده وكأنها وجدت شيئاً ثميناً لا تريد ان يضيع منها ، حتى اخوها طلب منها ان تكون اكثر اتزاناً ، لقد كانت

مندفعة نحوه بشكل غريب .

لم اتكلم ، هي لا تفكر فيّ الآن مطلقاً ، لقد وجدت زوجاً وهذا يكفيها ، لقد ضاعت العواطف ، ضاعت المشاعر ، وجدت نفسي افتح الباب واخرج الى الشارع الرئيسي ، شعرت بالقوة والضعف معاً ، كنت على استعداد لإن احطم رأس كل من يحاول ايقافي من رجال المخابرات، لم اجد ضرورة لركوب السيارات ، مشيت وسالت دموعي ببطء ، لم امسحها ، تركتها تنساب ، وحلي الطرب لي ، غنيت بصوت مخلوط بتنهدات البكاء ، وجدت طعم الدموع ضرورياً لهذه اللحظة .

احببت ان يبكينا كل الناس عدا الرجل الذي سينالها ، لم يبق لي شيئاً ، فأنا اصبحت مثل "مصيف الغور" : لا صيف صيفت ولا عرضي نلته . بيروت لا استطيع الوصول إليها ، ريم تزوجت ، لم اعد رفيقاً حقيقياً لهشام وهمام ، المخابرات تبحث عني ، المحكمة لم تبت في قضيتي ، خالي لا يريدني ان ازوره ولا استطيع زيارة اهلي في الوطن ، حالتي يرثى لها، انني في وضع لا احسد عليه ، لم يبق لي سوى هشام ارى الأمل في حديثه وطريقه ، زرته فقال : هذه هي الحياة وهذا هو مجتمعنا ، الإنسان عبارة عن مواقف ، إن معرفتك بما يحدث حولك يجب ان لا يزيدك إلا إصراراً على التحدي ، انك تناضل حتى وانت تواجه هذه المصاعب الاجتماعية ، يجب ان تعرف بانك الآن خارج السجن ، نحن نواجه مثل هذه المصاعب وان كان بدرجة اقل من الناحية الاجتماعية ، ونحن في السجن ، نحن في السجن ، ألا ترى ! انت قررت أن تعود إلى صوابك ، عُدت إلى النضال ، لا مجال للتراجع ، ان تراجعت هذه المرة سقطت وإلى الأبد ، ليس امامك سوى التقدم .

نعم ، ما قاله هشام هو الصحيح ، ليس امامي سوى التحدي

والتقدم ، النضال لا يكون فقط ضد السلطة بحد ذاتها ، السلطة في كل مكان ، انني اتحدى السلطة وتجلياتها ، الرعب الذي أصابني غرسته السلطة ، وزواج ريم فرضته السلطة ، وصاحب المقهى الذي عملت عنده ، جزء من السلطة ، السلطة في كل مكان ،لقد اصبحت الأمور اكثر وضوحاً بالنسبة لي ، لم اعد اكترث لكل ما يحدث ، نزعت الكوفية والعقال وصرت اتمشى في الأسواق والإذاعات تتداول موعد اجتياح لبنان ، ذهبت الى المحكمة فاذا بالمحقق مروان جالس هناك ، نظرت إليه باحتقار ، نهض ليسلّم علي ، لم اعره اهتمامي ، قال : هل نسيتني ؟

- لا اعرفك . قلت .

فتحت الجلسة ، تلى المدعي العام لائحة الاتهام ، استدعي مروان للادلاء بشهادته ، قال : نعم سيدي ، هذا الشاب اسمه ماجد وقد وقّع الإفادة التي امامك وهو بكامل قواه العقلية .

- ماذا تقول يا ماجد ؟ قال القاضي .

- لم أر هذا الشخص من قبل ، لم اوقع شيئاً أثناء الاعتقال ولا بعده ، كل ما قاله ليس صحيحاً .

تدخل مروان مؤكداً ما قاله فطلب منه القاضي ان يسكت ، نهض المحامي والقى كلمة اكد فيها على عدم اعترافي وعلى الناحية الاجتماعية التي اعيشها ، لم تعد الكلمات تهمني ، ظللت واقفاً وكأن لا شيء يحدث حولي .

حكمت علي المحكمة بالسجن ثلاثة شهور اخرى، جاء الشرطي ، أمسك بي ، قيّد يديّ وسار بي الى "النظارة" ، في الطابق السفلي ، جاء مروان وقال مهدداً : سأراك يوماً .

- سأراك يوماً أنا الآخر . قلت .

مرت ساعتان لأجد نفسي في احضان هشام ورفاقه مرة اخرى ، صفرت بيننا الحواجز ، كنت احس بالقرب من هشام اكثر من غيره ، همام كان يضع الحواجز بينه وبين كل من عرفوه ، كل السجناء يحترمونه لكن لم يكن من السهل اقامة علاقة اجتماعية معه ، لقد نال احترامه دون ان يكون على صِلة مباشرة في مناقشة امور السجن مع سجناء الغرف الأخرى، اعتبره الجميع العقل المدبر لكل القرارات ، اكتسب هشام ايجابياتها بينما اكتسب همّام سلبياتها، نادراً ما شارك في الاحاديث الاجتماعية ، كان يهمه فقط ان يتحدث في الأمور السياسية ، وإذا ما تحدث أفاض ، كان يريد من الجميع ان يسيروا ويلعبوا ويضحكوا وفق خطة وضعها في رأسه تؤدي الى خلق نماذج اخرى لشخصيته ، غالباً ما اصطدم بكثيرين بسبب قضايا لا تمت للسياسة مباشرة ، السياسة هي كل شيء في حياته وإذا ما رأيته يضحك يوماً تشك بأن ضحكته خرجت من الأعماق ، الصورة العامة المرسومة له جاءت من حركته الرشيقة وهو يسير في ساحة الشبك الأول ، يلبس صندلاً وبنطالاً ضيقاً ، يميل برأسه بزواية نحو كتفه الأيسر ويشير بيديه واصابعه اثناء حديثه ، لم يكن يهتم بالاشياء البسيطة التي تجري حوله ، فهو المخلص الأول في عمله ، لا عمل آخر لديه ، ليس لديه استعداد لإن يضيع بعضاً من وقته في أشياء أخرى ، وإن رأيته مرة يفعل ذلك تدرك انها مجرد مجاملة لا يكسوها اي نوع من الود الانساني ، كنت اهرب من مجالسته ومع إزالة الحواجز اكتشفت ان الجميع يشعر مثلي ، قلت في نفسي : بما ان هشام وهمّام في حزب واحد ، وهشام هو الذي ينقل الي الأخبار فلماذا اضع همّام وصورته دوماً أمامي ، سأنسى ان هناك سجيناً اسمه همام ، صورة الحزب في

ذهني يجب ان اراها من خلال هشام وليس غيره .

اقمت علاقات مع السجناء في هذه الغرفة ، مما جعلني اعيش في عالم آخر لم اعشه طيلة حياتي في السجن ، فتحت قنوات العلاقات مع سجناء الغرف الأخرى ومع بداية اجتياح لبنان والوصول الى مشارف بيروت عادت الغرف منابر لوضع برنامج نضالي لمساندة المقاتلين هناك .

فوجىء الجميع بسقوط قلعة الشقيف التي كتبت عنها الأساطير من قبل ، سقطت الأساطير واحدة تلو الأخرى ، وسقطت معها الآمال بتدخل الدول العربية، كسانا اليأس من كل ما حدث فاندفعنا للقيام بأي شيء ، تشكلت اللجان المختلفة : لجنة الأهالي والدفاع عن الحريات ولجان دعم المقاومة ولجنة الاضراب بالاضافة الى لجان اخرى مؤقتة ، بدأنا العمل مرة واحدة وفي كل المجالات معاً ، أُرسلت البرقيات مؤكدة على دعم السجناء السياسيين للمقاومة في تصديها للقوات الغازية ، ارسلت البرقيات للهيئات الدولية مؤكدة على ضرورة اخذ دور فعال في فضح الغزو الاسرائيلي الجديد ، وعلى حق اللبنانيين والفلسطينيين في التصدي بكافة الوسائل ، لم تترك جهة في اوروبا واوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي وجامعة الدول العربية والمؤسسات الانسانية إلا وأرسلت لها برقية تحمل نفس المضمون .

عملنا على كتابة العرائض المختلفة للحكومة ومؤسساتها من داخلية ومخابرات وزعيم مطالبة بالافراج الفوري عن كل السجناء السياسيين للانضمام الى الدفاع عن مطالبنا الشرعية التي سجنا من اجلها ، خاصة وان مراكز خارج السجن قد فتحت للتطوع لنصرة الفلسطينيين واللبنانيين الوطنيين ، وارسلنا برقيات مماثلة لهيئات

الصليب الأحمر وجمعيات حماية حقوق الإنسان .

لم تستجب السلطة مطلقاً ، مرت الأيام حتى وقفت القوات على مشارف بيروت فانطلقنا في خطوات تصعيدية جديدة ، قمنا باعلان الاضراب المفتوح عن الطعام لحين الافراج عنا ، قاطعنا زيارات الأهل ، قام الأهل بالاعتصام في مقار الصليب الأحمر وعلى ابواب السجن ، تدخلت إدارة السجن لمنع هذه الخطوة وأبدت تعاطفها مع مطالبنا وعزت كل الأمور للقرار الرسمي والمخابرات ، طلبنا منهم ان ينضموا لاضرابنا ان كانوا صادقين ، فجاء الرد بالهراوات وقنابل الغاز ، لم يعد يهمنا اي شيء ، استمر الاضراب لاكثر من اسبوعين والنظام لا يستجيب ، لم نعد نشعر بالجوع وبات للموت طعم لذيذ ، شعرت اجهزة الدولة بذلك فقامت بخطف العديد من السجناء الاساسيين ووزعتهم في سجون اخرى ، شعر من تبقى في سجن الوادي بالاحباط، ولم نعد نشعر بجدوى اضرابنا ونحن نتابع الاخبار المتناقضة عن وجود حل يقضي بانسحاب المقاتلين من بيروت ، اوقفنا مقاطعة الزيارات لمعرفة الاخبار في الخارج واخبار السجناء الآخرين ، وجدنا تململاً من الاستمرار في الاضراب ، قررنا وقفه وتفرغنا لسماع الأخبار وتحليلها .

كان من الصعب تحديد موقف واضح وصريح من الخروج من بيروت خاصة وان مختلف الاذاعات تنقلها ، وباتت تصريحات قادة المنظمة برفضها الخروج مجرد جزء من الاعلام ، اختلفت الآراء وحدث استقطاب بين جميع السجناء بما في ذلك المدنيون ، قال اصحاب الرأي الأول : ان الانسحاب خيانة وما دمت في موقع معين ، وفي قدرتك الدفاع عنه ، وتكبيد عدوك الخسائر فمن العار الانسحاب ، الانسحاب

يعني التراجع حتى لو كانت المعركة غير متكافئة ، ليس مهماً ان يباد في النهاية هذا العدد من المقاتلين ، ليس مهماً ان تباد رموز المقاومة في لبنان ، فالمستفيد في النهاية من التجربة كلها هو الشعب ، الشعب لن ينتهي لا في لبنان ولا خارجه ، الحرب يجب ان تستمر والعمل على انهاض قوى الجماهير العربية والعالمية يجب ان يستمر ايضاً ، الانسحاب هو الخطوة الاولى على طريق الخيانة . اما الرأي الآخر فكان: ان القضية الفلسطينية لن تنتهي بانتهاء هذه الحرب ، هذه جزء من معارك الشعب الذي يجب ان يستفيد منها الشعب بكامله بما فيهم قياديوه ومقاتلوه ، الحرب طويلة ولم نوهم انفسنا من قبل بأن هذه ستكون نهاية المطاف ، مقاتلوا بيروت قدّموا ولا زالوا يقدمون حياتهم ، لكن الموقع الذي يدافعون عنه يعتبر موقعاً خاسراً ، ان التشبث بالموقع الخاسر لا يمكن اعتباره بطولة ، إنه ببساطة حماقة ، الثوري هو الذي يبحث عن الأمل ، لا أمل في الموت ، لم يخطط اي انسان ليموت ، الموت يأتي رغماً عن الانسان ، الإنسان يبحث عن الحياة ولهذا يقاتل ، الحياة لا تأتي من خلال هذه المعركة ، مواجهة العدو ليست بحاجة لتحكيم عواطفنا ، ان اعداءنا يعملون بعقولهم ، يجب ان نبحث أيضاً عن مقاييس عقلانية ، لقد عملنا طيلة حياة نضالنا في اوساط الجماهير العربية رغم اعترافنا بالتقصير في هذا الجانب ، النتيجة هي اننا لم نسمع عن مسيرات ومظاهرات في أي مكان سوى في الوطن . كيف ستنهض الجماهير بدون أدواتها ! لقد عملت الأنظمة على قتل الأدوات ، نحن الذين عملنا على تحريض الأهالي على الأعتصام ولم نسمع عن شيء آخر ملموس هنا ، فأين هي الجماهير التي ستنهض ! يجب ان ينسحبوا من بيروت بضمانات دولية

وهذا في حد ذاته يعتبر نصراً .

انضممت لاصحاب الرأي الثاني وكذلك الحزب ، استمرت حالة الاستقطاب حول الموقفين الى ان اعلن رسمياً الموافقة على الخروج من بيروت ، تابعنا الاخبار وبكينا على الخسارة ، وُزع المقاتلون على عدة دُول ومنها الوادي ونحن نرقب ذلك بحزن والألم يعتصرنا ، سادت حالة من اليأس والاحباط لدى اصحاب وجهتي النظر ، مرت الايام بطيئة وقاتلة ، عددت الأيام يوماً بيوم وساعة بساعة ، لم احتمل الامساك بكتاب وقراءته ، لم اجد احاديث اقولها لأحد ، كنت اطوف على المقاهي والاشباك ، اتطلع نحو السماء وأعدّ نجوم الليل لحين سماع صوت مكبر الصوت يعلن الافراج عني .

حملت امتعتي ووقفت عند الباب فاذا بهم ينقلونني الى دائرة المخابرات ، شعرت بالصدمة وتساءلت عن السبب ، لكن العشر دقائق التي استغرقتني في الوصول هدأت من روعي ، لم يعد لدي شيء افقده ، يجب ان تقال الأمور ببساطة، ليفعلوا بي ما يريدون ، ربما سيرسلونني للسجن ثانية ، هذا لا يهمني رغم اني لا استطيع احتماله في هذه الاجواء ، لقد كنا في السابق نناضل ونحن نعتز بالاداة العسكرية في تحقيق النصر ، اما الآن فالطريق طويل للبحث عن البدائل ، الساحة المركزية التي كرس نضال كل الجماهير فيها ضاعت ، سقطت ، كانت اسطورة في اذهاننا وسقطت مرة واحدة ، فأين الساحة المركزية الآن ؟ الأمور غير واضحة مطلقاً ، كل شيء يبدو ضبابياً ، كلما اقتربت من بديل ابتعدت عنه باحثاً عن بديل آخر ، لا الدول العربية ستسمح بما سمح به الوضع اللبناني ولا الحريات الديمقراطية مُشاعة ، الأمل يجب ان يبقى ، الثورة في النهاية هي الأمل ، آهِ لو أرى

بصيصاً من بعيد ، لقد كنا نرى نوراً فاختفى ، لقد تهشم وتوزع على كل الدول العربية ، آهٍ ، لم يبق سوى الناس ، الناس هم الأمل ، اي امل يراودني ! فالناس يائسة ، سترتبط بالانظمة ، ستعاد الانظمة الى المقدمة ، لقد تراجعنا خطوات كثيرة ، ماذا سنفعل! ماذا سيدفعني لمواجهة التحقيق ! أي تحقيق سيجري ! سأترك الأمور تجري كما هي، لا مكان للتراجع ، ان عذبوني ثانية فلن يُفيدوا شيئاً ، إن أرجعوني الى السجن فسأبقى هناك بضعة شهور ثم يفرج عني ، الحياة اصبحت صعبة في الداخل وفي الخارج ، ليفعلوا بي ما يريدون ، لقد اخترت هذا النوع من الحياة، يجب ان اتمسك بهذا المستوى الذي وصلت إليه ، لن يقبل أحد تراجعي هذه المرة ، لقد ناضلت حتى اصبحت هكذا فهل أميت نفسي ! لا .. لا ، سأستمر ، المعركة القادمة أصبحت بالنسبة لي قضية حياة او موت ، حتى اعيش يجب ان اصمد ، الصمود يحقق الانتصار ، الانتصار ! نعم ، إنني الآن اتحدث عن ذاتي ، ذاتي هي التي ستهزم أو تنتصر ، أنا الآن لست عضواً في أية حركة سياسية، لقد اقتربت من هشام كثيراً ، اذا هزمت أهزم ذاتي ولا حاجة الى كل هذه الحياة ولكل هذا النضال الذي سلكته ، واذا انتصرت سأنتصر ليس فقط لذاتي ، سأحافظ على هذا المستوى حتى لو لم ارجع للحزب او لغيره ، لقد قبل متعاطي المخدرات التحدي وقضى سنيناً وما زال في سبيل قناعاته ، لقد قبل سارق السيارات التحدي وقرر ان يحج ، ليس لدي مفر سوى التحدي ، التحدي يصنع الرجال ، يجب ان اتحدى ، سأقول للمحقق بصراحة : افعلوا ما خططتم له ، كرروا ما فعلتموه معي في المرة الاولى ، ضاعفوا من تعذيبكم ، استخدموا الكهرباء ، اقتلوني اذا اردتم ، افعلوا ما يطيب لكم ، لكنني سأظل كما انا ، انا متمسك بكل ما

قلته في المحكمة ، ليس لدي شيء آخر ، لا تسألوني عن التفاصيل ، لن أقول لكم شيئاً ، لا تسألوني عن التفاصيل، انا الآخر لا أعرف ، إذا اردتم ان تسألوني عن الحاضر فانتم تعرفونه ولستم بحاجة لاجابات ، إذا سألتموني عن الماضي فأنتم تعرفونه أيضاً ، اذا قررتم ان ترسلوني في النهاية الى السجن فافعلوا ذلك فوراً دون ان تتعبوني أو اتعبكم ، واذا اردتم الافراج عني فافعلوا ذلك حالاً ، ليس لدي شيء أقوله ، ها انا امامكم ، المطلوب ان تحاكموني ان شئتم ، لست بحاجة لمحام ولستم بحاجة لمدعٍ عام ، اتلوا الحكم اعتماداً على المعلومات التي لديكم ، لن يفيدني رد الاتهام، افعلوا بي ما تريدون ، اريحوني واريحوا انفسكم ، فماذا انتم فاعلون !

القو بي في الزنازين السوداء ، لم تمر ساعة من الزمن حتى طُلبت للتحقيق ، صعدت الى الطابق الثاني في المبنى القديم فاذا بمروان جالس هناك ، لم ينهض من وراء مكتبه وكان يصطنع ابتسامة .

- اجلس يا ماجد الكاذب ، اجلس . قال .
- انا لست كاذباً ، يجب ان تحترم البشر .
- اجلس ، ما رأيك بما حدث في بيروت ؟
- كما تعرفه .
- لقد عرفنا انك كنت من انصار الانسحاب . مستهزئاً .
- إذاً ماذا تريد مني ؟
- لا شيء ، اعتقدت اننا بنينا جسراً من الصراحة ، لماذا لم تخبرنا انك كنت تود الذهاب الى بيروت ، لو كنا نعرف ذلك قبل الحرب لعملنا على مساعدتك . قالها وضحك .
- ولماذا كنت ستساعدني ؟

- حتى تموت هناك وستتحول الى شهيد بين رفاقك .

- ماذا تريد مني ؟

- هل كنت تتابع الاخبار ؟

- نعم .

- هل رأيت زعيمكم وهو يلقي كلمة ؟! هل رأيت استقبال زعيمنا للذين هربوا من بيروت وطلبوا اللجوء الينا ؟!

- ......

- هل سمعت زعيمكم وهو يقول بأن الوادي عمل للقضية وبدون تنسيق كما لو كنا في لبنان .

- كان يستهزىء بكم .

انطلقت ضحكة منه ، هز كتفيه ورأسه ، اشعل سيجارة وقال : لكنه في النهاية صرّح امام كل الناس هنا وفي الخارج باننا عملنا من اجل القضية .

- ماذا فعلتم ؟!

- منعناكم من ان تتحولوا الى شهداء ، حافظنا على حياتكم ، ألا تعتبر ذلك واجباً ؟!

- من هذه الناحية صحيح ، فعلتم الكثير ليس لي فقط وإنما لمعظم الناس . قلتها باستهزاء .

- وتقول في النهاية باننا لم نفعل شيئاً ! وضحك .

- الناس تعرف ذلك جيداً .

- اين ستذهب بعد خروجك !

- لا أعرف .

- اسمع يا ماجد ، لقد عرفناك طوال المدة الماضية ، لن اعيدك الى

السجن ، لسنا بحاجة لاثارة قضية من اجل واحد مثلك ، هشام واصحابه اهملوك لفترة طويلة وما زالوا رغم انك تحاول جاهداً الرجوع إليهم ، نحن نعرف عنك كل شيء ، لن نرحمك هذه المرة ، سنلقي بك حينها في السجن حتى تأكل الديدان لحمك ، أمامك خياران وبشكل واضح : أما أن تبقى هنا ، تعمل مثلما يعمل الناس ، فلا تتصل بأحد مطلقاً ، وإذا حدث ان اتصل بك اي شخص ، فيجب ان تأتي وتخبرنا في نفس اليوم ، لقد كنا نعرف انك على علاقة بهشام ، هذا لا يهمنا كثيراً فحتى السجناء المدنيون كانوا على علاقة به ، اما الخيار الثاني فهو ان تسافر ، لا يهمنا الى اين لكن قبل ان تقرر ذلك يجب ان تخبرنا حتى نعيد لك جواز سفرك . ما رأيك ؟!

- لقد كرهت الحياة في الوادي ، وإذا بقيت هنا فيجب ان تعرف بانني لن اصبح عميلاً لكم ، انتم تعيشون في عالم غير الذي أعيش فيه ، إذا اردتم معرفة اخباري فاعرفوا ذلك وحدكم ، هذا عملكم ، ربما سأسافر رغم اني لم احدد بعد إلى أين .

- لست بحاجة لاضيع وقتي معك ، قم وانصرف .

شعرت بالفرح وانا اسمعه ، لم اتنازل عن شيء ، شعرت انني انتصرت في معركة اخرى ، فرحت لإنه لم يسألني عن الاعتراف الذي وقعته امامه ، لقد اراد استصغاري واهانتي ، المسألة ليست كرامة شخصية ، فهناك رجالٌ يبصق في وجوههم وتغرز العصي في قفاهم ، رغم ذلك يظلون مرفوعي الرؤوس ، هناك نساء يغتصبن ويعرين دون ان يشعرن بالانحناء ، الكرامة هي للشعب الذي يجب عدم التنازل عنها، لقد سجنت وعرفت كيف يحوّل المناضلون السجون مصانع للرجال ، السجن والحياة والموت هي مسائل اجتماعية، امي نفسها قالت لي

عندما بكيت امامها بان السجن للرجال ، وها انا اعود رجلاً .

افرج عني عند العصر ، وجدت والديّ في بيت خالي لم اكن اخطط ان انام هناك لولا وجودهما ، كنت اود المبيت عند اهل هشام ، هكذا اخبرته من قبل ، سلمت عليهم جميعاً ، اختلط الفرح بالدموع ، وجدت نفسي طفلاً احب الجلوس بجانب امي ، سألتها عن اخبارها، وعدتها ان اسمع حكاياها ، قالت : والله صِرت رجلاً يا ماجد .

فرحت ، استمعت لوالدي وهو يتحدث عن مغامراته الثورية ، ضحكنا معاً وتحدثنا في احتمالات المستقبل ، شاركت بفاعلية في الاحاديث ، انصت الجميع وكأنني اخبرهم اشياء جديدة ، كنت اشعر بالفرح كلما انهى احدهم حديثه بالقول : ما رأيك يا ماجد ؟ شعرت باهميتي ، نسيت الكثير من ما حدث في الماضي ، فوالدي الذي بكى في دائرة المخابرات يحترمني الآن اكثر ، اشعلت امامه سيجارة دون ان يثيره ذلك ، لم يثر ذلك الأقارب الذي جاءوا لاستقبالي ، نسيت ما حدث مع خالي في المرة الماضية ويبدو انه نسي هو الآخر .

في اليوم التالي دُعينا لتناول وجبة الغذاء احتفالاً بي ، جاء اهالي السجناء يسلّمون عليّ ، لقد كانوا يرون ابناءهم في خروجي من السجن، اقتربت ام هشام مني ، امسكت يديّ ورأسي كمن تود التأكد من انني إنسان كامل ، لم يغيّروا منه شيئاً ، ثم همست : طلب مني هشام ان انقل له كل ما حدث معك ، لا يسمحون سوى للأهل المقربين بزيارته .

حدثتها عن كل شيء ، قالت سآتيك باخباره غداً .

انتظرتها ، جاءت ، رأيتها فرحة اكثر من قبل ، حضنتني وقبلتني وقالت : هشام يسلم عليك ويطلب منك ان تعود الى ارض الوطن عند

اهلك ، اخبرني ايضاً بانه سيرسل رسالة للاصدقاء هناك يوصيهم للاهتمام بك ، اعطني عنوانك .

فرحت ، ام هشام تعاملني مثل امي ، رأيتهما تتحدثان كما لو عشن معاً منذ الصغر ، فرحت أكثر ، صرت اكثر محبة واعتزازاً بابي وامي ، استعدت في الأيام التالية جواز سفري وتصريحي ، ودّعت الأقارب وكنت برفقة والديّ على الجسر .

انتهت

شباط ١٩٩٠م